رحلات ثقافية
لبلدان عربية

بقلم الأستاذ
عبدالله بن حمد الحقيل
رحمه الله تعالى

دار التحرير
للنشر والتوزيع

رحلات ثقافية
لبلدان عربية

ح فراس بن خالد الغنام، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر .
الحقيل، عبد الله بن حمد
رحلات ثقافية لبلدان عربية. / عبد الله بن حمد الحقيل؛
فراس بن خالد الغنام. (ناشر) - الرياض، ١٤٤١هـ
١٤٤ص، ١٧x٢٤سم
ردمك : ٢-٢٠١٧-٠٣-٦٠٣-٩٧٨
١- أدب الرحلات ٢- البلاد العربية أ. الغنام، فراس بن خالد (معد)
ب. العنوان
ديوي : ٤, ٩١٠ ١٤٤١/١٢٧٨
رقم الإيداع: ١٤٤١/١٢٧٨
ردمك : ٢-٢٠١٧-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

الطَّبْعَةُ الأُولى
جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ
١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

دار التحبير للنشر والتوزيع
وقفية التحبير
المملكة العربية السعودية
w.altahbeer@gmail.com
جوال: ٠٥٥ ١٩ ٩٢ ٥٥ ٩٦٦+

رحلات ثقافية لبلدان عربية

بقلم الأستاذ

عبدالله بن حمد الحقيل

رحمه الله

١٣٥٧-١٤٤٠

دار التحرير للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية

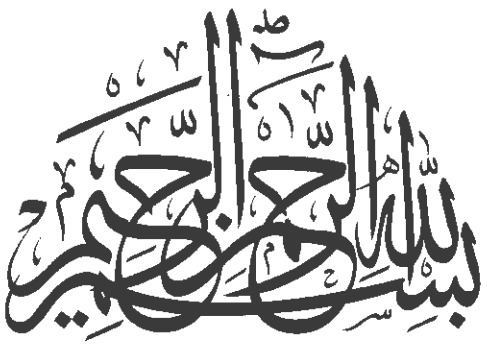
بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

أن تتولى كتابة مقدمة كتاب لأحد المثقفين المؤرخين، فهذا أمر لا تخفى صعوبته، فإن كان الكاتب أديباً، فالأمر أكثر صعوبة، فكيف إذا كان المؤلف صاحب فضل كبير عليك وأحد قدواتك في الحياة؟! لا شك بأنها مهمة في غاية الصعوبة، متزاحمة المشاعر، تتدافع فيها الكلمات والأفكار، وتتجاذب فيها العواطف والذكريات، فكيف إذا كنت أكتب هذه المقدمة عن الراحل الكبير، أبي؟!

أكتبها نيابة عنه رحمه الله، بالحروف والكلمات التي تعلمتها منه، والدروس والمعاني الكثيرة التي استفدتها منه، وهذا الكتاب واحد من تلك الدروس المضيئة، فكل قامة مؤثرة عليه مسؤولية تدوين تجاربه ليستفيد منها أجيال المستقبل، كما فعلت يا أبي في كتابك هذا.

وكنت أثناء تأليفك هذا الكتاب تقدم درساً آخر في أهمية احترام الوقت والمعرفة، والحرص على الإتقان، فرغم أنك يا والدي كنت في حالة صحية حرجة، ورغم الألم والتعب، لم يمنعك ذلك من بذل الجهد والوقت فيما هو مفيد، فكنت تراجع وتصحح كل حرف في كتابك؛ لأنك وضعت لنفسك معايير عالية، فلا تقبل أن يخرج إلا وهو في أعلى جودة. كما كنت تضع أهدافاً جديدة لكل يوم وتخصص الوقت من يومك لإنجاز ذلك الهدف مهما كانت الظروف.

جعلتني قراءة هذا الكتاب أعيش معك يا أبي مرتين، وأكتشف أشياء جديدة، وأرى الأمور بمنظور آخر، وستبقى كلماتك وآراؤك بمشيئة الله تنبض بالحياة، تعانق عيون القرَّاء، وتنير العقول والقلوب، وبإذن الله

يبقى هذا الكتاب صدقة جارية من العلم النافع الذي لا ينقطع أثره.

كم أنا فخور بك يا أبي معلماً وأديباً ومؤرخاً، وكم أنا حزين على فراقك والداً ومربياً تزرع الحب وتنشر المحبة والرفق والرحمة، وقيم العمل الجاد والإخلاص.

أضع بين يديك أيها القارئ كتاباً عزيزاً على نفسي تضمن مقطوعات أدبية رائعة، دوّن بها المؤلف رحمه الله تجربته ومشاهداته في رحلات علمية ثقافية متنوعة لعدة بلدان عربية، ليقدم للقارئ آخر مؤلفاته في (أدب الرحلات) ذلك الفن المحبب إلى قلبه، والذي غدا المؤلف من أبرز أعلامه في عصرنا الحاضر.

أسأل الله العلي القدير أن يجزي بالخير كل من أسهم في إخراج هذا الكتاب الغالي بأحسن صورة كان يتمناها الراحل الكبير، وأن يجعل ما كتبه رحمه الله في هذا الكتاب في ميزان حسناته، وأن يجمعنا به في الفردوس الأعلى، إنه ولي ذلك والقادر عليه سبحانه.

ماجد بن عبد الله بن حمد الحقيل

مقدمة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على من أوتي جوامع الكلم، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

أمّا بعد:

لقد استأثر أدب الرحلات باهتمام كبير من طبقات مثقفي العالم قديماً وحديثاً، وعُني به أعلام بارزون عبرَ أطوار الثقافة على اختلاف مناهج الرحلات من أجناس العالم.

وفي قراءة أدب الرحلات متعة وفائدة، ومعرفة وإحاطة بالعادات والتقاليد، والاستمتاع بمشاهد التاريخ ومعالم الحضارات ومظاهر الحياة، وهو سبيل من سُبل المعرفة والثقافة الإنسانية، كما أنَّه مصدر للمؤرخ والجغرافي والاجتماعي. وقد فطر الله الإنسان على حب الاستطلاع واكتشاف كل جديد، ولا شك أنَّ للأسفار مشقتها، وبخاصةٍ قبل تطور وسائل الانتقال، لكن لها فوائدها.

وفي هذا الكتاب صور عن بعض رحلاتي إلى الوطن العربي، في فترات متباعدة من الزمن، ولمحات موجزة، وهي تشتمل في مجموعها على انطباعات وذكريات، وهي ما يبقى للمرء بعد ذلك، ولقد قيل:

سفَرُ الفتى لمناطقٍ وديارِ ... وتجولٌ في سائر الأمصارِ

علمٌ ومعرفةٌ وفهمٌ واسعٌ ... وتجارِبٌ وروايةُ الأخبارِ

ولقد حفَل الشعرُ العربيُّ بالكثير من القصائد التي تحث على الأسفار والرحلات.

وإذا كانت الرحلات فيما مضى عملاً شاقاً فإنَّها اليوم بفضل الله ثم التطور الحضاري والتقنية الحديثة صارت عملاً مريحاً.

ولقد شكلت كتابات الرحالة مصدراً من المصادر التاريخية، وقدمت سجلاً شاملاً ومادة علمية ساعدت الباحثين في التعرف على جوانبَ كثيرة من الحياة والتاريخ والجغرافيا، ولقد أمدّ الكثيرُ من الرحالة الثقافةَ العربية بثروة فكرية وتاريخية وجغرافية.

ولقد نوّه المؤرخُ الرحالة عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ) بأهمية الرحلات، فأورد ذكرها في مقدمته الشهيرة، إذ قال: (والرحلة لا بد منها في طلب العلم واكتساب الفوائد والمعارف). ولقد قال الشاعر:

إن كنت تعلم أنَّ الأرض واسعةٌ ... فيها لغيرك مُرتادٌ ومُرتحَلُ
فارحل فإنَّ بلاد الله ما خُلِقتْ ... إلا ليُسلكَ منها السهلُ والجبلُ

وقال الشافعي:

ما في المُقام لذي عقلٍ وذي أدبٍ ... من راحةٍ فدعِ الأوطان واغترب

وقال الحريري:

نقِّل ركابك عن رَبعٍ ظمئتَ به ... إلى الجناب الذي يَهمي به المطرُ

وهكذا يظل أدب الرحلات رافداً من روافد المعرفة والثقافة والأدب والتاريخ، وما زال النَّاس يذكرون ذلك البيت الشعري الذي حصر فوائد السفر بقوله:

سفَرُ الفتى لمناطقٍ وديارِ وتجولٌ في سائر الأمصارِ
علمٌ ومعرفةٌ وفهمٌ واسعٌ وتجارِبٌ وروايةُ الأخبارِ

هذا وبالله التوفيق.

المؤلف

عبدالله بن حمد الحقيل

الرياض-١٤٤٠هـ

في ربوع الخليج العربي

الرِّحلات سبيل من سبل المعرفة، ومنذ مدة وأنا أترقّب الفرصة لزيارة الخليج العربي؛ إذ هو جزء من جزيرة العرب، مَهدِ العرب ومهبِطِ الوحي ومنطلَقِ الإسلام، ومهد الفصحى وموطن الشعر والفكر. وكم للشعراء والأدباء في ذلك من رصيد جم وقول رصين وبيان مشرق وذكر عريض ومجد أثيل، فقالوا في ذلك نظماً ونثراً، وكانت حفاوة العلماء والباحثين والمحققين كبيرة جداً، حيث كانوا يقطعون الفيافي ويجتازون المفاوز ويتعرضون للمتاهات ووعثاء السفر، ولا غَروَ؛ فجزيرةُ العرب واسعة الأرجاء وتزيد مساحتها على ثلاثة ملايينِ كيلٍ.

الكويت:

وكانت أول رحلة قمت بها في يوم السبت الموافق ١٢/ ٤/ ١٣٩٧هـ وجدتها فرصة لتحقيق بغيتي، فذهبت مبتدئاً بزيارة الكويت، وفي الصباح فارقنا مطار مدينة الرياض على متن إحدى الطائرات السعودية التي كانت تسير بنا بين شِعاب نجد وأوديته وجباله، وقممه الشاهقة ورياضه الجميلة، مردداً قول أبي الطيب المتنبي:

إذا مضى علَمٌ منها بدا علَمٌ ... وإن مضى علَمٌ منه بدا علَمُ

ولَكَم توحي تلك المناظر بتاريخ عريق، وما تزخر به من ذكريات ومجد وخطوب وتاريخ خالد، وكانت الشمس في أوج إشراقها، والسماء صافية الأديم، تشرق على الهضاب والواحات، والقرى والمراعي خضراء والرمال، والنخيل، الرمز الشامخ للجزيرة، والخزامى والشِيح والقَيصوم والسدر والأثل والأُقحُوان، وغير ذلك مما كان يأخذ مكاناً

بارزاً في روايات المؤرخين وفي قصائد الشعراء وأساطير الرواة وأخبار القُصّاص وأحاديث الرواة، وقد تفتّقت في ذلك قرائحُ الشعراء العرب في جاهليتهم، وتفجرت ملَكاتهم وزخرت مواهبهم، فتركوا تراثاً وعطاء هو أسمى ما وصل إليه شعرنا وأدبنا.

وما أكثر ما قال الشعراء في تلك المرابع، ومن ذلك قول الشاعر:

سقى الله نجداً من ربيعٍ وصَيِّفٍ ... وماذا تُرجِّي من ربيعٍ سقى نجدا

وكنت أرنو لتلك الأودية والشعاب وأشاهد تلك الهضاب مستعرضاً أقوال الشعراء، كقولهم:

تمتع من ذُرى هضَبات نجدٍ ... فإنَّك مُوشكٌ ألا تراها

وقول أحد الشعراء:

يشتاق قلبي إلى نجدٍ ويُطربُه ... نسيمُ نجدٍ إذا ما هبَّ خفّاقا
وأسأل البرق أحياناً فيطربني ... عنهم بما يملأ الأحشاءَ إحراقا
إن أومض البرقُ نجدياً بعثتُ له ... سحاً من الدمع مِدراراً ومُهراقا

وقول الأمير عبد القادر الجزائري:

وأسأل عن نجدٍ وفيه مخيَّمي ... وأطلب روض الرَقمتينِ ونَعمانا

وقول ابن خلدون:

يا أهلَ نجدَ ما نجدٌ وساكنُها ... حُسناً سوى جنة الفردوس والعِينِ
أعندكم أنّ ما قد مرّ ذكرُكمو ... إلا انتشيتُ كأن الراح تثنيني
أصبو إلى البرق من أنحاء أرضِكمو ... شوقاً ولولاكمو ما كان يُضنيني

وما أكثر ما قال الشعراء في ذلك. فهذه نفحات يسيرة مما قيل من أشعار في نجد وأوديته وقراه ومضاربِه ورياضه، تنفست بها قرائحُ

الشعراء، وأتوا فيها بما يعجب ويطرب، كامرئ القيس وطرَفةَ وزهير وعنترةَ والحارث بن حِلِّزة وأوس بن حجَر وجرير والفرزدق، وغيرهم كثير.

وكان بجواري على المقعد أحد الشيوخ، فتجاذبتُ معه أطراف الحديث حول الأسفار، فحكى لي قصصاً حول سفره على قوافل الإبل إلى الكويت ودبي ورأس الخيمة، وما مر به من المتاعب والمشقة، وأنَّه كان يسير سيراً متواصلاً في النهار، ويختفي عن أعين اللصوص وقُطّاع الطرق في الليل، وبينما نحن نتحدث عن تلك الأيام إذا بالمُضيف يطلب منا التهيّؤ والاستعدادَ للهبوط في مطار الكويت، فالتفتُّ لصاحبي وقلت له: إنَّ الطريق ساعة واحدة بدلاً من ثلاثين ليلة، ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزّخرُف: ١٣]! وكما ترى الأمنُ شامل، والزاد متوفر في الأرض والجو.

وهبطنا في المطار، حيث كان النسيم يداعب خدَّ الكويت رطباً ندياً منعشاً، وبكل بشاشة من قِبل المسئولين في المطار انتهت إجراءاتُ الدخول، وتوجهتُ صوبَ أحد الفنادق في مدينة الكويت، وحملتُ أمتعتي إلى إحدى حجراته، وأخذت غفوةً نهضتُ بعدها وخرجت أتجول في أسواقها، فهي مدينة جميلة تبدو في زينة من مبانيها الشاهقة وتخطيطها البديع وشوارعها الواسعة وميادينها الفسيحة، ولبثت بها عدة أيام أتعرف على حاضرها، وأتلمّس مناظرَ قديمها، وأستمع لقصص من ماضيها.

ولَكَم حدثني الكثيرون عن حياتها القديمة حيث عاشوا فيها مدة من الزمن، وكانت لهم لطائف وذكريات، وتلفّتَت عيناي على تلك الأماكن والأحياء القديمة ومداخلها، فوجدت يدَ التطور والنهضة قد امتدت إليها وحلّ محلَّها أحياء حديثة.

أمضيتُ في الكويت عدة أيام، تمكنت خلالَها من زيارة جامعة الكويت ومجموعة من المدارس الثانوية والابتدائية والمعاهد الخاصة ومتحف الكويت وبرجها الرفيع، كما قمت بزيارة للجهراء ولميناءَي الكويت والأحمدي، كما قمت بجولة في أحيائها، مثل: السالمية، حولي، الرميثية، الصليبيخات، خيطان، المرقاب، الفحيحيل، الشويخ، وغيرها من الأحياء والأسواق العامة والمنتزهات.

وفي الكويت نهضة علمية وثقافية، ويصدر فيها العديد من الصحف والمجلات، منها: اليومي، والأسبوعي، والشهري. وقمت بجولة في مكتبات الكويت؛ وذلك بهدف التعرف على مؤسسات الثقافة والنشر.

وفي الكويت التقيت بالعديد من رجالها وعلمائها الأفاضل، وبسعادة سفيرنا والمُلحق التعليميّ وغيرهم من الإخوة السعوديين ممن استوطنوا الكويت، ووجدت منهم كل حفاوة ومحبة وتقدير.

البحرين:

ثم توجهت صوب البحرين، وكانت تسمى "أوال" قديماً، فوصلناه ليلاً، وأوينا إلى أحد الفنادق في المنامة في شارع واسع وعلى شاطئ البحر. وكانت تتناثر في خيالي ذكريات الماضي الخالدة عن هذه الجزيرة التي تمتد في التاريخ إلى أقدم العصور، ولتاريخ البحرين ذكر في المصادر التاريخية.

وفي الصباح خرجت لزيارة المسئولين في وزارة التربية والتعليم، فوضعوا لي برنامجاً لزيارة نماذج من المدارس المتوسطة والثانوية والابتدائية، وفي العصر خرجت لمشاهدة أسواق المدينة والتجول في شارعها الكبير، وبعد العشاء خرجت مع بعض الإخوة الذين حضروا لزيارتنا في الفندق، فجلسنا على شاطئ البحر ورأينا البحرين تتلألأ، ثم

ذهبنا لتناول طعام العشاء لدى الملحق الثقافي السعودي إجابة لدعوته، ونعمنا لديه بلقاء الكثير من الإخوة السعوديين، من رجال الأعمال والمدرسين السعوديين والعاملين في السفارة السعودية، ثم عدت إلى الفندق مشياً على الأقدام. ولكم تذكرت ما مر به البحرين من تاريخ طويل عريض يشدّ الاهتمام:

عصفَ الدهرُ بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حالاً بعد حال

وفي البحرين أدباءُ وشعراء، وصحيفتان هما: البحرين، والوطن.

وفي صبيحة اليوم الثاني نظّمت لنا وزارة التربية والتعليم رحلة إلى بعض جزر البحرين، ثم قمنا بزيارة المحرّق والرفاع وبعض البساتين المجاورة والعوالي حيث تقوم أكبر مصافي النفط، ثم زيارة مصنع الألمونيوم.

وانتقلنا بعد ذلك إلى المدرسة الفندقية، ثم إلى المتحف لنرى آثار البحرين، ولنشاهد عصوراً من التاريخ، وبدائع من التراث والفنون، وآثاراً ومناظر تحكي زمناً طويلاً طوي في هذا المتحف الواسع الكبير:

كل حي على المنية غاد تتوالى الركابُ والموت حاد
ذهب الأولون قرناً فقرناً لم يدم حاضرٌ ولم يبق باد
هل ترى منهم وتسمع عنهم غير باقي مآثرٍ وأيادي

ومن البحرين غزا المسلمون وانطلقوا نحو بلاد فارس، وفتحوا كثيراً من تلك البلاد بقيادة العلاء بن الحضرمي ورفاقه من أولئك الأسلاف الجحاجحة العظام الذين نشروا الإسلام، فكانوا نوراً أومض في الظلام، وعزماً واصلوا به الجهاد، وثبّتوا به قدم الحضارة الإسلامية في تلك الأراضي التي اكتسبت شخصية الإسلام الروحية والثقافية والعلمية.

الإمارات العربية المتحدة:

ثم توجهت صوب دبي ورأس الخيمة والشارقة وعجمان وأبو ظبي وأم القيوين والفجيرة، وأمضيت فيها بضعة أيام، شاهدت خلالها ما تحفل به من تطور ونهضة وعُمران، ومناظرَ طبيعية وأماكنَ أثرية، ومؤسسات ثقافية وعلمية، ومكتبات عامرة، واطلعت على تلك المدن، وتجولت في ربوعها وشاهدت معالمها، كمدينة رأس الخيمة "جلفار".

وفي الساعة التاسعة صباحاً من صباح يوم الاثنين الموافق ٥/٦/١٤٠٥هـ اتجهنا من مدينة الشارقة إلى إمارة رأس الخيمة، ومررنا بإمارة عجمان، ثم بلدة أم القيوين الواقعة على شاطئ الخليج، وكان الطريق ممهداً يخترق صحراء واسعة خالية من الجبال، وبعد مسيرة ما يقرب من مائة وعشرين كيلاً، وصلنا إلى مدينة رأس الخيمة، وهي تقع في أرض منبسطة واسعة تكثر فيها الأشجار، وتنتشر فيها كثبان الرمال، ومن أبرز شوارعها: شارع الملك فيصل.

وقمت بزيارة المعهد العلمي التابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وفيه عدد كبير من الطلاب من الإمارات وعمان، وبه مكتبة تحتوي على مجموعة من الكتب في مختلف العلوم، وكان لقاءً طيباً مع أساتذة المعهد، وخرجنا معهم في نزهة إلى الصحراء.

وفي اليوم الثاني حضرت اجتماع المراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية، والذي شارك فيه عدد كبير من المراكز والجامعات، واستمر لمدة ثلاثة أيام.

وقمت بجولة في المدينة القديمة جلفار التي كان لها ذكر كثير في الكتب التاريخية القديمة، وتجولت مع الزملاء على ساحل المدينة، حيث شاهدنا ما بقي من آثار البلدة القديمة. ولقد سألت بعض المؤرخين عن

سبب تسميتها بـ"رأس الخيمة"، فقيل لي: لأنَّ رأس البحر فيها يشبه الخيمة في استدارته.

وبعد أن أمضينا أياماً في ربوعها غادرتها إلى أم القيوين التي تبعد عنها سبعين كيلاً، وهي تقع على الشاطئ، وشوارعها فسيحة، وبها معهد تابع لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

ومنها إلى عجمان ويقال: إن اسمها مشتقٌ من اسم قبيلة العجمان، ولقد رأيت الحدائق تنتشر في أرجائها إلى جانب الهدوء.

ثم سافرت إلى الشارقة لمشاهدة معرض الكتاب، والذي نُسقت أمكنة العرض فيه تنسيقاً حسناً.

والشارقة من أهم موانئ الخليج قديماً وحديثاً، وأصبحت المدينة الثالثة في الإمارات، وقد ازدهر فيها العمران والنشاط الثقافي والتجاري.

ثم اتجهت إلى دبي وأبو ظبي ومدينة العين، متجولاً في رحاب هذه المدن، وشاهدت المعالم التاريخية الحديثة فيهن.

وبعد.. فإن مدن الخليج اليوم تمثل نموذجاً فريداً للمدن الكبرى التي قفزت قفزات في التطور الحضاري.

حقاً فمنذ حللت في ربوع الخليج العربي لم أشعر أني اغتربت، بل رأيت نفسي كأني في بلدي وبين إخواني، ولا غروَ؛ فنحن أمة واحدة ذات دين واحد ولغة واحدة وحضارة متماثلة وعادات متقاربة. وهذا ذخر يجب أن يصان ويحافظ عليه.

وإن الكتابة عن الخليج والجزيرة العربية يحتاج إلى كتابٍ مستقل، فقد بلغت هذه الربوع أوجَها في الماضي، كما تُثبت ذلك الدراساتُ الأثرية والتاريخية والجغرافية، وقد خلّد ذكرُها في أقوال الشعراء والأدباء

والعلماء ووصفها المؤرخون بأنَّها كانت ذات حضارة وازدهار ورقي، وزيارة هذا الجزء الغالي خيال يداعب كل من قرأ التاريخ، وسمعَ عن تطوره المعاصر. وسأحاول مستقبلاً أن أُفرِد لذلك كتاباً مستقلاً عن تاريخ الجزيرة بإذن الله، ويتضمن الماضيَ العريق ومشاهِدَ الحاضرِ المجيد، والأصالة والأمجاد التاريخية.

ودام خليجُ العُربِ بالعز شامخاً تضوَّع رمزاً بالوفاء وبالمجد

الى سلطنة عمان

في يوم الثلاثاء الموافق ٣٠/ ١/ ١٤٢٢هـ غادرت مطار الرياض متوجهاً إلى سلطنة عُمان عن طريق دبي، وذلك بدعوة من جامعة السلطان قابوس للمشاركة في الملتقى العلمي التاريخي لجمعية التاريخ والآثار لدول مجلس التعاون، وقد فارقنا مطار الرياض على متن إحدى الطائرات السعودية التي حلقت بنا على ارتفاع خمسة وثلاثين ألفَ قدم، وكانت تسير بنا في فضاء الله الواسع، وكانت السماء مطرَّزة بالسحاب، موشّاة ببياض غيوم، في مشهد بالغ الجمال والتأثير. وسعدنا بمشاهدة شعاب بلادنا وأوديتها وجبالها وقممها الشاهقة ورياضها الجميلة.

ولقد ذكرتني تلك المناظر والواحات والنخيل والنباتات بما قاله الشعراء والمؤرخون وأساطينُ الرواة، وما أكثر ما قال الشعراء في تلك المرابع مما تنفست به قرائح الشعراء وأتوا فيها بما يُعجب ويطرب.

وكان بجواري على المقعد أحد الإخوة ممن كان يسافر إلى دول الخليج في القديم والحديث، فحكى لي قصصاً حول أسفاره إلى دبي ورأس الخيمة وسلطنة عمان بالسيارات، وأدرك مع والده بعض رحلاته على قوافل الإبل، وحكى لي ما صادفهم من المتاعب والمشقات. وبينما نحن نتحدث عن تلك الذكريات إذا بالمُضيف يطلب منا التهيؤ والاستعداد للهبوط في مطار دبي.

وهبطنا في مطار دبي مع مجموعة من الزملاء من أساتذة التاريخ والآثار في جامعة الملك سعود وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وتجولنا في رُبوع المطار ومبانيه الشاهقة وسوقه الحرة، حيث

كان لدينا متسع من الوقت، ثم خرجنا نتجول بعض الساعات في ربوع دبي ومعالمِها وبحرها وميادينها وأسواقها، ثم عدنا للمطار لمواصلة الرحلة إلى مسقط على الخطوط العمانية.

وصعدت إلى الطائرة متذكراً الخليل بن أحمد الفراهيدي واضع علم العروض وصاحب كتاب "العين"، وابنَ دُريد صاحب كتاب "الجمهرة" والشاعر المشهور، وأبا العباس المبرد صاحب كتاب "الكامل". وقد كانت تسمى قديماً بـ"مزون"، كما ورد في قول الشاعر العماني:

إن كسرى سَمّى عُمان مزوناً ... ومزونٌ يا صاح خيرُ بلاد

بلدةٌ ذات مَزرعٍ ونخيلٍ ... ومراعٍ ومشربٍ غير صاد

وذكرت قول شاعرهم الذي وفد مع قومه إلى رسول الله ﷺ قائلاً بقصيدة طويلة، منها:

إليك رسولَ الله خبَّتْ مطيتي ... تجوب الفيافي من عمانَ إلى العَرج

فجلسنا في الطائرة نتجاذب أطراف الحديث في التاريخ والأدب والشعر، وخطبة أبي بكر في أهل عمان، وإمارةَ عمرو بن العاص فيها، وأقوال الجاحظ. وهكذا كنا في حوار علمي حتى هبطنا في مطار مسقط.

وكان في استقبالنا مجموعة من المسئولين في جامعة السلطان قابوس بكل ترحيب وبشاشة من قبلهم، وقاموا بإنهاء إجراءات الدخول وجمع الحقائب، ثم اتجهنا إلى الحافلة المعَدّة للتوجه بها إلى فندق "مسقط انتركونتنتال". وفي الفندق وجدنا من الإخوة كل الترحيب، والتقينا بعدد من الزملاء من أساتذة الجامعات في كل من البحرين والكويت والإمارات وقطر وعمان، واستلمنا مفاتيح الغرف، ووزعوا علينا برنامج الحفل وجلسات الملتقى العلمي.

وفي صباح يوم الأربعاء ١/ ٢/ ١٤٢٢هـ توجهنا صوب جامعة السلطان قابوس إلى قاعة المؤتمرات لافتتاح الملتقى العلمي التاريخي في رحاب الجامعة وتحت رعاية صاحب السمو أسعد بن طارق آل سعيد "أمين عامّ اللجنة العليا للمؤتمرات"، وقد أقيم حفل الافتتاح بحضور عددٍ من أصحاب السمو والمعالي والسعادة، وجمعٍ من الشخصيات الأكاديمية ذات الاختصاص، وجمهورٍ كبيرٍ من الحضور.

وفي بداية الحفل تُليت آيات من القرآن الكريم، ثم ألقى نائب رئيس الجامعة كلمة بهذه المناسبة، شكر فيها صاحب السمو راعي المناسبة على تفضله برعاية حفل الافتتاح، ورحب فيها بأعضاء جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون، وقال: إنَّ هذا الملتقى يأتي إيماناً بضرورة التواصل العلمي مع كافة القطاعات، من أجل نشر رسالة الجامعة وأهدافها السامية في خدمة العلم وأداء الرسالة البحثية، وإن استضافة الجامعة لهذا الملتقى في رحاب السلطنة وعلى أرضها يدل على اهتمامنا بالتراث والتاريخ، وضرورة الارتكاز عليهما في كل خطة تنموية. وفي ختام كلمته دعا المشاركين إلى الخروج بنتائج مفيدة، تكون مبنية على أساس علمي راسخ؛ لأنَّ هذه المنطقة كانت ومنذ فجر الإنسانية مبعث الحضارة.

بعد ذلك ألقى الدكتور عصام الروّاس رئيس اللجنة التحضيرية للملتقى ونائب رئيس جمعية التاريخ والآثار كلمة وجّه الشكر من خلالها إلى المسئولين في الجامعة، وأشار إلى عدد من البحوث التي بلغت ثلاثة وثلاثين بحثاً، وقد بلغ عدد المشاركين أكثر من مائة وعشرة مشارك من خارج عمان. وهذه البحوث تعالج العديد من القضايا التاريخية والأثرية التي تتعلق بتاريخ المنطقة ودولها عبر مختلف العصور.

بعد ذلك قام رئيس جمعية التاريخ والآثار من المملكة العربية السعودية بإلقاء كلمة الجمعية.

وبعد ذلك قام صاحب السمو راعي الحفل بإلقاء كلمة أشار فيها إلى ما تتمتع به مواضيع التاريخ والآثار من أهمية، وأنه من الممكن للباحث الاستفادة بما يشاء من هذا العلم الموثّق من عبقرية الأجداد وما وصفوه من أحداث، كلّلت لهم النصر وتركت لنا العزة والفخار والحكمة التي نستمد منها الصبر والتحمل، وأكّد على المكانة التي يتمتع بها التاريخ، قائلاً: إن التاريخ ومع أنه علم الماضي إلا أنه حاضر نابض بالحياة، نستمدّ منه إرشادات حياتنا العلمية.

ولما جاء الإسلام عزز الكثير من القيم والمفاهيم العربية، فأنتج حضارة ثقافية وفكرية عظيمة، وإن هذه الأحداث التاريخية والوسائط الأثرية والآثار الشاخصة وعاء فكري وثقافي لنا وللأجيال القادمة.

لقد كان حفلاً ثقافياً شائقاً، اتسم بالاهتمام ورفد المسيرة الأَخوية وتقدير المؤرخ العربي، والاعتماد على المنهجية التاريخية، حتى يستطيع المؤرخ أن يكتب تاريخاً حقيقياً بعيداً عن التأثيرات.

وبعد الحفل وأداء صلاة الظهر انعقدت الجلسة الأولى، حيث خُصصت الجلسة الأولى لنقد التاريخ وتناول منهج البحث التاريخي، وكذلك للحديث عن المسئولية التاريخية التي تقوّم تاريخ المنطقة بطريقة علمية وأكاديمية.

ولقد اشترك في الجلسة الأولى عدد من العلماء المختارين ممن لهم عناية بموضوعها. وقد تحدث الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري عن "ثمود والثموديّة"، كما تحدث الأستاذ الدكتور معاوية إبراهيم عن تاريخ البحث الأثري في الخليج العربي "عرض نقدي"، واستعرض الدكتور عبد الله الشارخ إعادة النظر في تقسيمات العصور الحجرية للمملكة العربية السعودية، وتحدث الدكتور عبد الملك التميمي

عن أهمية نقد الكتابات التاريخية المعاصرة، أما الدكتور عبد الله بن إبراهيم العسكر فقد تحدث عن النقد التاريخي، وأما الدكتور سليمان الرحيلي فقد دعا إلى منهج توثيقي موحَّد في الدراسات التاريخية في دول مجلس التعاون.

لقد كانت الجلسة الأولى حيوية وصاخبة بالنقاش العلمي، والجد والحماس على النهوض بحركة البحث العلمي التاريخي والآثاري في بلداننا، وعلى ترسيخ أسس التعاون والتآخي والتلاقي، وتوثيق عُرى المحبة والتكامل بين دول المجلس على مختلف الأصعدة.

ثم توجه الجميع بعد ذلك إلى قاعة الطعام بالجامعة لتناول طعام الغداء، ثم توجهوا إلى الفندق واستؤنفت الجلسات في قاعة الفندق، حيث كانت جلسات مسائية وصباحية لمدة يومين، تحدث فيها عدد من الإخوة عن العصور الإسلامية والعصور الحديثة والمعاصرة وعصور ما قبل التاريخ والعصور القديمة، وقضايا تاريخية وأثرية، مع ما صاحبَ ذلك من مناقشات ومداخلات، وتقديم الجديد في حقل الدراسات التاريخية والآثارية.

لقد كانت فرصة طيبة للتعرف عن قرب على عمان ومكانتها التاريخية، ومكنونها التراثي وآثارها القائمة، وعلى إنجازات نهضتها المعاصرة، وخاصة أن هناك مجموعة ليست قليلة من الزملاء أعضاء الجمعية من المتخصصين في الدراسات العمانية، وفئة أخرى مهتمة بآثار وتاريخ عمان. وهناك أوراق وبحوث قدمت في هذا الملتقى، كان لها أثرها في إثراء دراسات التاريخ في منطقة الخليج العربي.

ولا شك أنَّ مثل هذه اللقاءات العلمية تعضد المسيرة الخيّرة نحو الالتقاء والاتفاق التي تنتهجها دول المجلس وأبناؤها على مختلف

الأصعدة، حيث يساعد على تقريب وجهات النظر وتوحيد الآراء في المسائل العلمية، وفي تفعيل البحوث والدراسات المشتركة عن المنطقة وآثارها، وإثراء البحوث والدراسات.

ولقد سبق لدارة الملك عبد العزيز في الرياض أن استضافت هذا الملتقى في العام الماضي، وكل ذلك يدعونا إلى الأمل والتفاؤل بالمزيد من العطاء، وصولاً إلى ترجمة الأفكار وتحقيق الآمال الكبيرة والإنجازات البحثية التي تخدم تاريخ المنطقة وآثارها.

وبعد أن انتهت تلك الجلسات العلمية كانت فرصة للقيام بزيارة بعض المكتبات والقلاع والمدن والحصون والمتاحف وبعض الأسواق الشعبية، وانطلقنا في صباح الخميس لزيارة المدينة التاريخية "نزوى" التي تبعد عن العاصمة مسقط مائة وستين كيلاً.

ومررنا بعشرات القرى والبلدان، وفي "نزوى" قمنا بزيارة قلعة نزوى ثم قوسها، وتجولنا في ميادينها وآثارها، ثم توجه الجميع نحو قصر صاحب السمو السيد أسعد أمين بن طارق آل سعيد لتناول وجبة الغداء في قلعة البشائر ولاية آدم، ولقد كان حفلاً بهيجاً ولقاء أخوياً ودياً، تخلله كرم مضيفنا، حيث كان على جانب من الخلق والأدب، وتجاذبنا مع سموه أطرافَ الحديث في التاريخ والأدب والشعر والتراث والآثار، فكان لقاء ممتعاً ومفيداً.

وفي نهاية الحفل طلب مني الإخوة التحدُّث باسمهم، فكانت فرصة طيبة للحديث لشكر سموه على كرمه وحفاوته، وللجامعة لاحتفائها بانعقاد هذا اللقاء العلمي في رحابها، هذا اللقاء الذي يتضوع بهذا الجمع الميمون، وتنعكس عليه هالة العلم والمعرفة، حيث التقينا بكوكبة من رجال التاريخ ورواد الآثار الذين أمتعونا بعلمهم وفضلهم وزاد تجاربهم، وما أسهموا به

من دور بارز في هذا المجال. وقد أحسنت الجمعية التاريخية صنعاً بهذا التوجه الحضاري، والإدراك الواعي لجسامة الدور المُلقى على عاتقها من دراسة التاريخ وتراث الأمة عن طريق هذه اللقاءات لبث الوعي والنور والمعرفة، والخروج منها بما نتطلع إليه من فائدة بإذن الله.

ثم أنشدتُ بعض الأبيات الشعرية مما أوحت به هذه المناسبة التاريخية، ومطلعها:

من الرياض ومن بدرٍ ومن أحُدٍ ... جئنا لمسقطَ أرضِ المجد والأدب
ومن تكن شُعلة التاريخ رائدَه ... يَكتُبْ صحائفَه بالصدق والحَدَب
ولنَسعدِ اليومَ بالتاريخ ندعمُه ... بالجِدّ والبحث عن عزمٍ وعن كثَب
إن المؤرِّخ في صدقٍ وفي ثقةٍ ... هو الحفيظُ على الأمجاد والرُتَب

وهي طويلة. وفي آخرها قلت:

تحيةً لجميع الصحب مُفعَمةً ... بالوُدِّ والحب من نزوى إلى خلب

وخلب موضع في جنوب الجزيرة قربَ القنفذة، على حدّ قول الزميل الدكتور سعد الراشد وكيل وزارة المعارف لشئون الآثار والمتاحف.

وبعد وداع سموه والحاضرين ذهبنا لزيارة حصن الشموخ، ثم تناولنا المرطّبات في فندق "نزوى"، والعودة إلى العاصمة مسقط.

وفي المساء خرجنا في جولة إلى بعض المعالم والأسواق، وأهم معالم مسقط السياحية: "قلعة الجلالي، ومتحف التاريخ الطبيعي"، حيث كان الجو رطبا نديا منعشا خلال أُمسيّة تغمرها البهجةُ والإشراق والأخوة.

وبعد أن أمضينا أياماً جميلة غادرنا عُمان والنفسُ مُفعَمة بشتى الانطباعات والذكريات الجميلة، وحافلة بالفائدة والمتعة.

رحلةٌ إلى صَلالة

الرحلاتُ من أوسع أبواب المعرفة والثقافة الإنسانية، وفي صبيحة يوم الخميس الموافق ١٩ من رجب ١٤٣١هـ غادرتُ الرياض على متن إحدى طائرات الخطوط الجوية العربية السعودية متوجهاً نحو صلالة في عمان، وكنت خلال الرحلة التي استمرت زهاءَ ساعتين أستعرض عُمان وتاريخها ومعالمها وعلماءها وآثارها، ثم قطع عليّ تلك الذكريات صوتُ مذيع الطائرة ينبّهنا للنزول في مطار صلالة. وكنت أشاهد الجبال الشاهقة وبحر العرب يحيط بها من كل جانب، فعمان تقع في موقعٍ متميزٍ في أقصى الجنوب الشرقي لشبه الجزيرة العربية، وهي تُطلّ على ساحل يمتد أكثر من ألف وسبعمائة كيلٍ.

وفي المطار رأيت الإخوة العُمانيين في منتهى اللطف والبشاشة والترحيب، وغادرتُ المطار متوجهاً صوبَ فندق (كراون بلازا) في صلالةَ النابضة بالحياة وبعبَقِ التاريخ وأصالته، فهي مدينة تجذب الزوار مهما كانت اهتماماتهم. ولقد عُرِفتْ عُمان كثغر عربي اشتهر بالتجارة والملاحة، وكان العمانيون رواداً للبحار منذ القدم وصُنّاعَ السفن.

وبعد أن استقر بنا المقام في الفندق أخذتُ في تنظيم برنامج للرحلات إلى الجبال والمتاحف والعيون، وكنت أشاهد على طولَ الطريق قلاعاً وأبراجاً وبحاراً وضباباً يجسد لوحة من الجمال، وشاهدنا العيون المائية وأودية مائية دائمة الجرَيان، ولقد قمت بعدة رحلات بصحبة صديق عزيز هو الأستاذ سالم العلوي، وكان خبيراً بالطرق والجبال والواحات، وكانت صلالة بجنباتها الخضراء يعانقها الجبل

الشامخ والبحر من كل الجهات وأشجار جَوز الهند بكثرة، وكذا الموزُ والغافاي، والخريف هو عامل جذب خلال فترة الصيف، حيث يأتي الناس من جميع أنحاء العالم للاستمتاع بمُفردات الطبيعة الخلّابة والمطر، والجبال الغارقة في الضباب والوديان المكسوّة بالخُضرة، والينابيع والشلالات، والسهول الخِصبة ومناظر الريف الاستوائي.

ولقد قمت بعدة زيارات لكل من آثار البليد الذي يحتوي على آثار إسلامية قديمة، وقد أُدرج هذا الموقع ضِمنَ قائمة التراث العالمي التابعة لمنظمة اليونسكو، كما قمت بزيارة موقع خور روري الأثري "سمهرم"، وكان اسماً لأحد الملوك قبل الإسلام، كما قمتُ بزيارة لبلدة "نمريت" على بعد سبعة وسبعين كيلاً عن صلالة، وشاهدت بحرَها الصافي الجميل، وتناولنا الغداء في أحد مطاعمها في داخل البلدة القديمة، ولقد اشتهرت هذه البلدة بالأسماك وتجارة اللُّبان، ويعتقد علماء الآثار بأن ملكة سبأ جاءت إلى هذه المنطقة للتزود باللُبان، وذهبنا في رحلة إلى وادي دربات، وهو عبارة عن حديقة طبيعية ذات مناظرَ خلّابة، تتخللها الجبال والكهوف والسهول الخضراء وأنواع مختلفة من الحياة البرية، وخلالَ رحلة إلى الجبل مررنا بمكان يسمى ضريحَ النبي أيوب عليه السلام على بُعد خمسة وثلاثين كيلاً من صلالة، وبالقرب منه توجد عينُ ماء، ثم ذهبنا بعد ذلك في صباح يوم مشرق جميل إلى عين "أرزات"، حيث شاهدنا بعض الينابيع الطبيعية التي تتدفق من وسط الصخور ثم تنساب في مجرى يتفرّع وسط البساتين الخضراء، ومنها إلى عين "جرزيز"، وهي تبعد حوالَي أربعة عشر كيلاً عن صلالة، ويوجد بموقع العين عدد من الكهوف ومظلات لاستراحة الزوار، ومنها إلى عين "صحنوت"، والتي تقع شمالَ شرقِ مدينة السعادة وتبعد خمسة عشر كيلاً عن صلالة، ولقد شاهدنا موقع العين والمناظر الجميلة بجوارها، ثم انتقلنا بصحبة الصديق

سالم العلوي الخبير بهذه الأماكن إلى عين حمرانَ وعين أثوم، ومنهما إلى طاقة، وهي بلدة ساحلية لها تاريخ عريق، وتبعد عن صلالة حوالَي ثلاثة وثلاثين كيلاً، وتطل على شاطئٍ رملي جميلٍ، ومن أبرز معالمها التاريخية "حصنُ طاقة"، ثم ذهبنا إلى جبل "سمحان"، وهو جبل شامخ، ومنه إلى "مرباط" لمشاهدة الفندق الجديد الذي أقيم حديثاً، وهو فندق "ماريوت"، ويبعد عن صلالة سبعة وسبعين كيلاً، ويطل على البحر، وبعد زيارة "طاقة" و "مرباط" ذهبنا إلى مركز البلدية، وهو الموقع الأساسي الذي تقام فيه فعاليات مهرجان صلالة السياحي، حيث يتضمن قاعات تقام فيها عروضُ وأُمسيّات المهرجان ومسرح خاص للأطفال وقرية تراثية شاملة.

وخلال التجول في ربوع هذا المكان وفي كل بقاع منطقة ظَفار الجميلة والمتنوعة ما بين تراثٍ وآثارٍ وعيونٍ وقلاعٍ ومناطقَ وجبالٍ تنطق بذكريات تاريخٍ حافلٍ نظمتُ قصيدةً مطلعها:

من الرياض ومن بدرٍ ومن أُحُدٍ ... جئنا صلالةَ دار الود والحسب
تحيةً ملؤها الإخلاصُ مفعمةً ... بالشوق والحب من نزوى إلى خلَبِ

وهي قصيدة طويلة أوحت بها هذه المرحلة التي أضافت الكثير من المعلومات بما شاهدته في هذا البلد الشقيق وأهله الأوفياء الطيبين، حيث جمع بين تاريخ حافل بعراقة الماضي وآفاق المستقبل.

وبعد تمضية أيام ممتعة في رُبوع ولاية ظَفارَ ودّعتُ صلالة مردداً قول الشاعر العربي:

بِنفسيَ تلك الأرضُ ما أجملَ الرُبا ... وما أحسنَ المُصطافَ والمُتربّعا

تحية عُمان

ألقيتُ هذه القصيدة في حفل افتتاح الملتقى التاريخيّ لدول مجلس التعاون في مسقط في ٣/ ٦/ ١٤٣٣هـ:

مِنَ الحَطيمِ من البيت العتيق ومِن ... مهدِ النبوةِ حيثُ الركنُ مُستلَما
تحيةٌ مِلؤُها الإخلاصُ صادقةٌ ... كالشمس مُشرقةً فانجابت الظُلَما
حَيِّي عُمانَ التي ضاءت معالمُها ... بالعلم والفِكرِ والآدابِ والكُرَما
لكُم من الشكر أحلاه وأجملُه ... وشيمةُ المرء دوماً يشكر النِعَما
عُمانُ عاش بها الإبداعُ من قِدمٍ ... وما يزال بها الإبداع منتظِما
يداعبُ البحرُ في رفقٍ شواطئَها ... وحولها سُفنُ الرُوّاد مُعتصَما
جِنانُها الفِيحُ للعُشّاق مُنتجَعٌ ... خِصبٌ تظلِّلُه الواحاتُ مُلتزَما
وحَيِّ جمعيةَ التاريخ خالدةً ... فَتيّةً ما شكت ضعفاً ولا سَأَما
علَتْ على مَفرِق التاريخِ رائعةً ... تُشِعُّ نوراً بساحات العُلا قِدَما
فكم لها من يدٍ يزكو الثناءُ بها ... وموقفٍ ذكرُه يزكو به القلمُ
تاريخنا الفذُّ كم أبدت محاسنَه ... بمنهج البحثِ والتأصيلَ والقِيَما
تراثُنا لم يَزل رمزاً لعزتنا ... ومصدراً لثَراء الفكر والعُلَما
تاريخُنا حافلٌ لا يُستهان به ... رغمَ الجحود ومن في آذانهم صَمما
في ذا اللِقا كم بحوثٍ سوف يَعرضها ... رُوّادُ تاريخنا والكل مُنسجِما
بكُم تعالَت صُروحُ العلم وارتفعت ... وليسمع الكلُّ من إبداعكم حِكَما
هذي المناقبُ للتاريخ نذكرُها ... عزيمةً صلبةً نمضي بها قُدُما

عـاش الـخـلـيـجُ وحـيّـا اللهُ قـادتـه ودام ذخـراً وعـزاً يـزرع الـشِـيَـمـا
ومُـشـرعـاً بـابَـه لـلـعـلـم مـؤتـلِـقـاً كـم أنـبـتـت أرضُـه الـرُوادَ والـعُـلَـمـا!

أيام ثقافية على ضفاف الخليج في الكويت

للرِحَلات فوائدُ لاستزادةِ المعرفة والتعرُّف على مختلف جوانب الحياة، وتجديد النشاط وحب المعرفة.

ولقد فطر الله الإنسان على البحث المستمر عن الحقيقة ومعرفة ما تزخر به الحياة، وحب المعرفة والاستطلاع، مما يزيد المعارف والثقافة، ولقد استأثر أدبُ الرحلات باهتمام كثير من طبقات مثقفي العالم قديماً وحديثاً، وعُني به أعلام بارزون عبرَ مراحل التاريخ، وما زالت الرحلات إلى يومنا هذا مصدراً للتعرف على أحوال الأمم وثقافات الشعوب.

ولقد قمت بهذه الرحلة إلى دولة الكويت يومَ الجمعة الموافق ٢٨/ ٣/ ١٤٢٦هـ، حيث فارقنا مطار الملك خالد الدولي على متن إحدى الطائرات الكويتية التي كانت تسير بنا فوق شعاب نجد وأوديته وجباله وقممه الشامخة ورياضه الجميلة، وكنت أردِّد قولَ الشاعر أبي الطيب المتنبي:

إذا مضى علَمٌ منها بدا علَمٌ وإن مضى علَمٌ منه بدا علَمُ

ولكَم توحي تلك المناظر بتاريخ عريق، وما تزخر به من ذكريات ومجد وخطوب وتاريخ خالد.

وكان في الرحلة نُخبة من أدبائنا، منهم: الدكتور منصور الحازمي، والدكتور عبد الله المعيقل، وإبراهيم التركي، ومحمد رضا نصر الله، وكنا ضمنَ مجموعة من المدعوِّين من مؤسسة جائزةِ عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري للحضور والمشاركة في ملتقى الكويت الأوّل للشعر

العربي في العراق، وخلال رحلة الطيران كنت أتذكرُ قصائد الشعراء وما قالوه في تلك المرابع التي نمر بها، ومن ذلك قولُ أحد الشعراء:

سقى الله نجداً من ربيعٍ وصيِّفٍ وماذا تُرجّي من ربيعٍ سقى نجدا

وقول الآخر:

ألا يا صبا نجدٍ متى هجتِ من نجدِ لقد زادني مسراكِ وجداً على وجدِ

وفي أفياء القصيدة الوارفة الظلال تذكرتُ قول القائل:

تمتّع من ذُرا هضَبات نجدٍ فإنك مُوشِكٌ ألا تراها

وبينما كنا نتجاذب أطرافَ الحديث مردِّدين قولَ الشاعر:

تحُثُّ مطيَّنا الأشواقُ منا ونقطعُ بالأحاديث الطريقا

إذا بالطائرة تعلن الاستعداد للهبوط في مطار الكويت الدولي، وانتقلنا إلى قاعة التشريفات، حيث كان في استقبالنا عدد من المسئولين الذين رحبوا بنا.

وبعد انتهاء الإجراءات المعتادة ذهبنا إلى فندق "ماريوت"، وهو أحد فنادق الكويت الفخمة، وبعد استراحة صعدنا إلى الدور السادس عشرَ حيث تقع قاعةُ الثريّا، حيث وجدنا الأستاذ عبد العزيز سعود البابطين والأستاذ عبد العزيز السريّع، وجمعاً كبيراً من الأدباء والشعراء من مختلف أرجاء الوطن العربي والشعراء العراقيين القادمين من الخارج. وتحدث الأستاذ عبد العزيز البابطين مرحباً بالشعراء والأدباء، ثم تحدث عن أهداف هذا الملتقى الشعري الذي تقيمه المؤسسة وعن المحاضرات والندوات والأُمسيّات الشعرية. وكانت فرصة لإثراء الكثير من الأسئلة، وفتح الأبواب والنوافذ على الإبداع والتعبير الثقافي والأدبي والفكري بين الكويت والعراق أولاً، وبين العراق وبقية الأقطار العربية الشقيقة ثانياً.

وإنَّ هذا الملتقى الأول للشعر العربي سيكون فاتحة لملتقيات شعرية وثقافية أخرى حول الشعر العربي.

لقد كان هذا الملتقى يذكرني بالمواسم والأسواق الشعرية.

وفي صباح يوم السبت توجهنا إلى قاعة الاحتفالات بمعاهد التربية الخاصة في حولّي، وكانت القاعة مليئة بالمدعوين.

وبرعاية وحضور سمو رئيس مجلس الوزراء الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح وبمشاركة رئيس مجلس الأمة جاسم الخرافي والنائب الأول لرئيس مجلس الوزراء والنواب وكبار رجال الدولة افتُتح ملتقى الكويت الأول "الشعر العربي في العراق".

استهلّ حفلَ الافتتاح رئيسُ مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين، عبدُ العزيز البابطين بكلمة رحّب فيها بضيوف الملتقى من العراقيين والعرب، فقدم شكره إلى سمو رئيس مجلس الوزراء الشيخ صباح الأحمد على تشريفه برعاية الملتقى، وأكد في كلمته أهمية هذا الملتقى قائلاً:

"إننا على ثقة تامة بأن المشاركين في هذا الملتقى وبما يتمتعون به من علم وثقافة وسعة اطلاع سيُثرونه من خلال المناقشات والدراسات القيّمة، لكن أهميته القصوى تنبع من كونه يأتي في مفصل مهم من تاريخ الأمة والمنطقة، يصل ما انقطع ويرأب ما انصدع. ونحن في الكويت، ولله الحمد، لم يكن بيننا وبين شعب العراق العزيز ومثقفيه أي خلاف أو شقاق، وكانت الكويت ولا تزال طليعةَ المساندين لهذا الشعب، ولثقافته وحضارته، ولشعرائه وأدبائه ومثقفيه، ولم نترك للأحداث التي لم يكن لنا يد فيها أيَّ فرصة لتجاهُل هذا الشعب ومبدعيه، أو التأثير السلبيّ على المحبة والتواصل مع أبنائه، سواء على المستوى الرسمي أو الأهلي،

ولا أدلَّ على ذلك من مثال بل من أمثلة أستقيها من مسيرة مؤسستنا التي أنشئت عام ١٩٨٩م".

دورُ المؤسسة في دعم الشعر العربي:

تحدث البابطين عن دور المؤسسة في دعم وتشجيع الشعراء العراقيين، وقال: "رغم تقارب هذا التاريخ مع الأحداث الجسام التي عصفت بالمنطقة فإن المؤسسة وبكل مخرَجاتها الأدبية والشعرية والمعجمية كانت وبشكل كلي إلى جانب التواصل والتعامل مع أبناء العراق المبدعين على قدم المساواة مع إخوانهم العرب الآخرين في كل الأقطار".

كما أكَّد دعمَ الكويت لهذه المناسبات، فقال: "أودّ أخيراً التأكيد على دعم الدولة في الكويت وعنايتها الأكيدة بمثل هذه المناسبات، وتشجيعها لمثل هذه المبادرات والجهود الخاصة التي تسعى مخلصة إلى التواصل الصادق بين أبناء الأمة، وبناء الثقة بينهم، ونسج لُحمة التضامن والإخاء على أمتن الأُسُس وأخلص النوايا".

وبدوره أكّدَ هلال ناجي في كلمته نيابة عن المشاركين العراقيين دورَ الملتقى في تعميق الأخوة والتواصل بين شعراء ومثقفي البلدين.

كما أشاد بدور مؤسسة البابطين في دعم الشعر والشعراء، فكانت بحق راعية الشعر العربي الحديث على امتداد الوطن العربي.

وأضاف: "لقد استطاعت بطموح مؤسِسها وصائب فكره وصادق جهده ومبذول ماله أن تلُمّ شملَ كل شعراء العربية المعاصرين في موسوعة واحدة، وتطبعها في مجلدات ضخام طبعتين متلاحقتين، كانتا زينة وذخراً في أرفع المكتبات، ومهّدت أيضاً لإعداد موسوعة لا سابقةَ

لها، هي "موسوعة البابطين لشعراء العربية الراحلين في القرنين التاسع عشر والعشرين". وهي موسوعة أدبية علمية رفيعة المستوى، تؤرخ للراحلين من شعراء العربية عبر قرنين من الزمن موثقة بصور الشعراء، ونماذِجهم الخطية، وتراجِمهم العلمية الدقيقة، ونماذجهم الشعرية المنتقاة. تولى أمرَ إعدادها نخبة من أعلام كُتَّاب تاريخنا الأدبي، والأمل معقود في أن تُدفع إلى المطابع في خواتيم هذا العام، وأقامت من المهرجانات والملتقيات الشعرية ما شاع خبره وذاع، وعرفه كل المعنيين بالشعر العربي، وهي مهرجانات كُرِّست للاحتفاء بذكرى أعلام الشعر العربي في مصر ولبنان والمغرب والجزائر والخليج وفي إسبانيا وغيرها، فهي تكرّم الشعراء الراحلين الأعلام، وتشُدُّ على أيدي المبدعين".

كما تناول ناجي في كلمته عراقةَ الشعر العربي في العراق، وقال "لقد كان العراق على امتداد التاريخ منارة شامخة للشعر العربي، فيه ابتكر الفراهيديُّ علم العروض وقعّدَ قواعده، وفيه انبثقت كلُّ حركات تدوين الشعر العربي في مجاميع، فكانت المعلَّقات والمفضلياتُ والأصمعياتُ وأكثرُ الحماسات وكتب الاختيارات الشعرية، وفيه نبغ أعلامُ نقدِ الشعر، كالحاتميّ والآمدي وسواهما، وفيه أيضاً أرَّخ لجذور حركات التجديد في الشعر كثير من الدارسين، والنقاد المعاصرون يظنون أن حركات التجديد في عروض الشعر العربي ظهرت في منتصف القرن العشرين، وهو وهم كبير، فقد أتيح لي بمشاركة أخي العلامة الدكتور زهير زاهد أن أكتشف عملاً عروضياً رائعاً ورائداً صنَّفه أحمدُ بن محمد العروضيُّ - وهو عراقي - في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، تعرّض فيه لكل التجديدات الشعرية التي شاع أمرها في زماننا هذا، والتي سميت بالشعر الحر، من شعر مرسل وشعر تفعيلة وقصيدة مدوَّرة، وغير ذلك. وهو أمر حقَّق الريادةَ للعراقيين في تجديد الشعر قبل عشرة قرون".

وبعد استراحة قصيرة تلاقى الأدباء والشعراء فيها تذكرتُ قول الشاعر:

وإذا الأديبُ مع الأديبِ تلاقيا كانا من الآداب في بستان

وبدأت المحاضرة الأولى بعنوان "رُوّاد الإحياء في الشعر العربي في العراق"، وفي المساء كانت الأمسيّةُ الشعرية الأولى على مسرح الشامية في "حولّي"، وكانت مناظرة شعرية كان قوامَها كلماتُ وقصائدُ شعراءَ من العراق، عبروا عن مكنون مشاعرهم وجميل كلمهم، واستطاعوا أن يَنظموا من الشعر قصائد جميلة، ذكّرتْنا بشعراء العراق قديماً وحديثاً، كالبحتريّ والمتنبي، وغيرهما من الشعراء الذين ولدوا في العراق، وفي زماننا كالرُصافي والجواهري والبياتي والنجفي، وغيرهم من رواد الشعر العربي المعاصر والحديث.

وكان الحضور الكثيف الذي تفاعل مع قصائد الشعراء منسجماً مع هذه الليلة الشعرية الخالصة بكل ما حفلت به من لحظات إنسانية، كانت الكلمة فيها هي الوقتَ والمكانَ في آن. وأدار هذه الأمسيةَ الشعريةَ الدكتور محمد أبو شوارب، لقد كانت قصائدَ جميلة حافلة ومفعمة بعشق الوطن.

وفي اليوم الثاني كانت المحاضرة عن رواد التجديد في الشعر العربي في العراق، السياب ورفاقه، للدكتور عبد الواحد لؤلؤة، وتلتها مناقشة ومداخلات.

وفي المساء توجه الجميع إلى مسرح الشامية لحضور الأمسية الشعرية الثانية، وقد أحياها تسعة شعراء، وقد كان الطابع الغالبُ على أغلب القصائد يحمل شُجونَ العراق والعراقيين، وفي الوقت نفسه يحمل رسالة حب دافئة للكويت، ورفضاً للإرهاب، وترسيخَ مبادئ المحبة ونبذ الشر والفرقة والتطرف.

وفي مساء اليوم الثالث كانت المحاضرة عن شاعرات العراق، نازك الملائكة وأترابها.

لقد كانت تلك المحاضرات والندوات قيّمة لأساتذة ونقاد بارزين، تعمقوا في دراسة النص الشعري العربي بوسائل ومنهجيات أدبية، ألقت أضواء على مسيرة الإحياء والتجديد في الخطاب.

وفي المساء كان الحفل الختامي، وقد اشتمل على كلمة رئيس المؤسسة وكلمة الضيوف ألقاها أحد الأساتذة السعوديين.

وهكذا كانت أياماً حافلة بالشعر والشعراء، توزعت بين الندوات والأمسيات والمحاضرات، وغيرها من الفعاليات الثقافية التي تؤكد أواصر الثقافة المبنية على المحبة والتعاون، وترسيخ قيم الحب والتسامح والسلام بين الأشقاء، كما جرى تنظيم برنامج لزيارة معالم الكويت، حيث قام الضيوف بزيارة مكتبة البابطين المركزية ومجلس الأمة.

كما أولم البابطين لضيوف الملتقى، وأُلقيَ خلال ذلك الحفل كلمات وقصائدُ شعرية جميلة، تناولوا فيها جوانب مختلفة عن الأدب والشعر والقصة والرواية والإبداع الأدبي الشعري.

لقد حرصتُ خلال وجودي في الملتقى السادس لجمعية التاريخ والآثار التي عُقدت في الكويت قبل هذا الملتقى بأسبوع على زيارة بعض المعالم والآثار في الكويت، مثل: أبراج الكويت، وهي معلم سياحي يصافح مياه الخليج، ولقد افتُتح هذا المعلمُ البارز سنة ١٩٧٩م، وكذلك: قصر العدل، ومجلة العربي، وجامعة الكويت.

كما ذهبتُ لزيارة معالم الكويت القديمة والوقوف عليها، مثل: حي الوسط في وسط المدينة، وهو يقع بين حي الشرق وحي القبلة، وكذلك: أسوار الكويت التي عرفت بها، ومتحف الكويت الوطني الذي

يجسد العادات والتقاليد وتراث أبناء الكويت، وهو مؤسسة ثقافية تعكس تاريخَ وحاضرةَ هذا البلد.

كما قمت بزيارةٍ لدار الآثار الإسلامية، وهي مركز ثقافي إسلامي، وقد عُرضت مقتنياته العالمية النفيسة في أكبر متاحف العالم، ويتألف المبنى من عشر صالات ومكتبة متخصصة، تتضمن تحفاً ذات قيمة تاريخية وفنية وجمالية، توزعت على اختلاف أنواعها وَفقَ تسلسل زمنيّ على صالات عديدة، اختصت كل صالة منها بعصر معيّن، مثل: العصر الأُموي، العباسي، الفاطمي، الأيوبي، العثماني...، إلخ. وتضمّ الدار حالياً أكثر من عشرين ألفَ قطعة أثرية إسلامية نادرة، تعود لعهود إسلامية مختلفة، من مخطوطات وخزفياتٍ، وأشغال ومصنوعات زجاجية ومعدنية وخشبية، بالإضافة إلى مكتبة متخصصة تضم حوالي سبع آلاف كتاب.

كما قمت بزيارة إلى متحف طارق رجب، وهو متحف يقع في منطقة الجابرية، حيث يضم مجموعات نادرة من المصاحف ومخطوطات عربية وفخاريات إسلامية وأدوات موسيقية وأثاث عربي إسلامي قديم، هذا بالإضافة إلى المجوهرات الذهبية منها والفضية، والمشغولات والمصنوعات المعدنية والمطرَّزات والأزياء العربية القديمة، والسيراميك والمُنمنَمات والدروع، وكلها تعود إلى عصر الحضارة الإسلامية، ومن ضمن تلك المجموعات النادرة والقيمة:

١ - نسخة من المصحف الشريف، تعتبر الوحيدةَ من نوعها، حيث تعود إلى القرن الرابع الهجري - الحادي عشر ميلادي -، وقد كُتِب بالخط الكوفي.

٢ - سوار ذهبي من العصر الفاطمي، يعود إلى القرن الحادي عشر الميلادي.

٣ - مجمرة البخور "مِبخرة"، من العصر السلجوقي (١٠٣٨-١١٩٤) ميلادي، من سوريا.

٤ - مجموعة من السيوف والخناجر، تعود إلى القرنين الميلاديين الثامنَ عشرَ والتاسع عشرَ وأوائلِ القرن العشرين.

٥ - كرسي خشبي مزخرف، يعود إلى القرن التاسعَ عشرَ الميلادي.

وكذا الواجهة البحرية، وهو مشروع سياحي كبير، يمتد من منطقة الشيوخ حتى رأس الأرض بالسالمية بطول واحد وعشرين كيلو متراً، ويشتمل على اثني عشر مركزاً للخدمة من مطاعمَ ومقاه وخدمات الإشراف والنظافة والصيانة، منتشرة على طول الواجهة البحرية. ويضم هذا المشروع: أبراج الكويت، والجزيرة الخضراء، ومجمع أحواض السباحة، ونادي اليخوت، ونادي الشعب البحري، ونادي رأس الأرض.

وهكذا سعدنا بقضاء أيام ممتعة مفيدة حافلة بالمُتعة الفكرية والفوائد التاريخية، وغادرنا الكويت والنفس مفعمة بجميل الذكريات وشتى الانطباعات، ونحن أكثر ما نكون شوقاً لها.

تحية لملتقى الشعر في دولة الكويت

هذه تحية من فيض الوِجدان والخاطر، أطلقها القلبُ بفيض عذب لهذا الملتقى الذي يتبوأ مكانة سامقة وعنوانا وضّاءً، وإن مجال القول في غايته لذو سعة، ولكن مقتضى الحال يدعو إلى الاقتضاب بهذه التحية الشعرية التي تتأرّج بزكيّ الشَذا.

بـأيّـةِ ألـحـانِ الـقـريـض أُغـرِّدُ ... لـحـفـلٍ زهـا حُـبـاً ووُدّاً وأشـجـانـا
أُحـيّـيك يـا شـعـبَ الـكـويـتِ تـحـيـةً ... بـكـل مـعـانـي الـحـبِّ صـدقـاً وإيـمـانـا
شَـواطـيـك أعـطـاهـا الإلـهُ جـمـالَـهـا ... وزانـت مـغـانـيـهـا جـمـالاً وألـحـانـا
أتـيـنـا تُـبـارِيـنـا مـشـاعـرُ وُدِّنـا ... فـللـحـب نـهـرٌ قـد جـرى فـي حـنـايـانـا
وأُهـديـك مـن أمِّ الـقـرى ورُبـوعِـهـا ... ومـن طَـيـبـةِ الأمـجـادِ نُـوراً وقـرآنـا
وأُهـديـك مـن نَـجـدٍ صَـفـاءَ نـسـيـمِـهـا ... ومـن مـوطـنِ الأعـشـى تُـراثـاً وعُـمـرانـا
ومـن ثَـهـمـدٍ حـتـى الـعـقـيـقِ ورامـةٍ ... ومـن حـومـلٍ وادي الـغـضـا ثـم ثَـهـلانـا
نـحـيّـيـك مـن آفـاقـنـا وربـوعـنـا ... بـعـابـقٍ مـن شـمـيـم الـشِّـيـح فـتّـانـا
أتـيـنـا هـنـا مـن كـل فـجٍّ ومـوقـعٍ ... إلـى مُـلـتـقـى الأشـعـارِ شِـيـبـاً وشُـبّـانـا
بـكـل شـوق سـمـا انـثـالـت خـواطـرُنـا ... لـه نـجـاوز آكـامـاً وكُـثـبـانـا
أتـاكـم وفـودُ الـشـعـر مـن كـل جـانـبٍ ... وحَـلُّـوا بـأكـنـاف الـمـحـبـةِ إخـوانـا
فـأهـلاً بـمـن جـاءوا بـكـل حـمـاسـةٍ ... خـطـاهـم سـريـعـاتٌ وفـي الـقـلـب تَـحـنـانـا
"عـكـاظٌ" أطـلَّ مـن رُبـاه إلـيـكـم ... مـآثـرُه تـهـفـو إلـى جـمـع لُـقـيـانـا
ومـا أجـملَ الأشـعـارَ تـجـمـع شـمـلَـنـا ... نـتـيـه بـهـا فـخـراً ولـلـمـجـد عُـنـوانـا
إن الأديـب لإنـسـانٌ سـمـا خُـلـقـاً ... وجـلَّ قـدراً وزان الـفـكـرَ تـبـيـانـا
وكـم جـلا فـي خـطـوبِ الـدهـر مـن سِـيَـرٍ ... وسـوف يـحـمـلُـهـا لـلـنـاس أزمـانـا

فشعركم واضحٌ كالشمس مفخرةٌ ... يشدو به الكل إبداعاً وعُمرانا
في مُلتقى الشعر قد عمَّ السُرورُ بكم ... والكلُّ في فرحةٍ كالطير نَشوانا
آمالُنا لم تزل خضراءَ يانعةً ... خفاقةً تزدهي ورداً وريحانا
عزمٌ وجهدٌ وإخلاصٌ ومعرفةٌ ... بكل صدقٍ نصون الشعر إيمانا
وبارك الله مجهوداتكم ورعى ... في ملتقى الشعر نزجي الشعر ألحانا
لقد سمَت للعُلا أعمالُ نَدوتنا ... هنا على شاطئ الجَهراء مُرسانا
فشعرُنا أنتم للعين مقلتُه ... وأنتم الصحبُ في ذا الجمع مُزدانا
سرنا على نهجه صدقٌ مشاعرُنا ... فما وهَنّا ولا أَبدينَ خِذلانا
فأبرزوا روعةَ الأشعار حيث غدت ... خيرَ اللآلئ ياقوتاً ومرجانا
قصائدٌ كلّلَ التاريخُ هامتها ... ومن صروحِ العلا في ذكرِ من كانا
بمنطق الشعر نُعلي من قصائدنا ... تلألأ الشعرُ أشكالاً وألوانا
حملتم مِشعلَ الآدابِ في دَأبٍ ... وزانها الشعرُ إبداعاً وإتقانا
فشعرنا ناصعٌ في مجد أمتنا ... أشجى المشاعر إخلاصاً وميزانا
نفائسٌ دُرةٌ في لوحةٍ نُقشتْ ... أضواؤها شَعشعت فخراً وإيمانا
فامضوا بعزمٍ وإيمانٍ وفي ثقةٍ ... وفرحةٍ قد زَهت من طيبِ مَسعانا
في كل ما نلتقي ذكرى معطَّرةٌ ... تنساب كالجدول الرَقراقِ رَيّانا
لقد تلفَّتَ كلُّ الباحثين لنا ... وتابع الكلُّ إذ يُصغي للقيانا
فاستنهِضوا يا شُداةَ الفكرِ أمتَكم ... وحلِّقوا في ذُرى الإيمان إخوانا
وكم بهمّتِكم للشعر من أملٍ ... للمجد والفكر أعلاماً وأركانا
أرضي الجزيرة يا حباً يُوحِّدنا ... على التعاون إخلاصاً وبُنيانا
دام الوئام عميقاً في تجمُّعِنا ... بالحب مُتّشِحاً وَرداً وريحانا
يا روضةَ الشعر قد هيّجتِ عاطفتي ... في ملتقى الشعر بالآداب مُزدانا

الكويت - ١٤٢٥هـ.

قصائدُ ألقيتها في مناسبات تاريخية في دول مجلس التعاون الخليجي

قصيدة ألقيتها في حفل الشعر والتعايُش السلمي في دبي الذي نظمته جائزةُ البابطين للإبداع الشعري.

الشعرُ كان ولا يزال الوسيلةَ المثلى للمّ الشمل والتعايش السلمي، ومنذ القِدم كان الشعر فن اللغة العربية الأول، به ترتفع الهمم وتعلو العزائم وتشمخ النفوس، ولقد قال الجاحظ: "الشعر صياغة وضربُ مثل".

وقال الشاعر:

لولا مقالُ زهيرٍ في قصائده ... ما كان يُعرف جودٌ كان في هرِمِ

وقيل:

ولولا خِلالٌ سنَّها الشعر ما درى ... بُناة المعالي كيف تُبنى المكارمُ

ولقد أنشدتُّ قصيدةً في حفل الشعر والتعايش السلمي الذي أقيم في دبي الذي نظمته جائزة البابطين للإبداع الشعري، وهي:

بأية ألحان القريض أغرِّدُ ... لحفلٍ زها حُبّاً ووُدّاً وأشجانا

ليالي دبيٍّ زانها الله بهجةً ... وزانت مغانيها جمالاً وألحانا

أحيي لقاء الشعر ألف تحيةٍ ... بكل معاني الحب صدقاً وإيمانا

وأهديه من نجدٍ نسيمَ صفائها ... ومن موطن الأعشى تراثاً وعمرانا

ومن ثهمدٍ حتى العقيقِ ورامةٍ ... ومن حوملٍ وادي الغضا ثم ثهلانا

نحييه من آفاقنا وربوعنا ... ومن عابقٍ يهفو من الشِيح فتّانا
ومن كل شوقٍ دائمٍ جاد عطرُه ... يجاور آكاماً تناءت وكُثبانا
أتينا تبارينا مشاعرُ وُدنا ... ونهرٌ من الإلهام مَجرى حنايانا
أتاكم وفودُ الشعر من كل جانبٍ ... وحَلُّوا بأكناف المحبة إخوانا
عُكاظٌ أطلّ من ذُراه إليكمو ... بأشعاره يهفو إلى جمع لقيانا
قد كان ملحمةً للشعر رائعةً ... فالشعر يأسر ألباباً وآذانا
بمنهج الشعر نمضي في قصائدنا ... تلألأ الشعرُ أشكالاً وألوانا
فلا أقلَّ من الأشعار نُرسلها ... نشدو بها من بديع القول ألحانا
لو رُحتُ أسرُدُ ما أعنيه من أثرٍ ... ملأت طرسي وما أنهيتُ عنوانا

دبي ٢٠/ ١١/ ١٤٣٢هـ.

تحية لندوة التاريخ والآثار المنعقدة في الشارقة

بمناسبة إقامة هذه الندوة ألقيتُ كلمة في حفل الافتتاح وقصيدة شعرية، فقلت:

أهدي تحية من ديار النبوة ومنازل الوحي، ومسارح الفصحى، ومواطن الشعر والأدب، ومباءات الشَمَم والكرم، ومهوى أفئدة العرب والمسلمين.

إن هذه الندوة التاريخية تتبوأ من التاريخ مكانة سامقة وعنواناً وضاءً، وإن مجال القول في غايتها وأهدافها لذو سعة، ولكن مقتضى الحال يدعو إلى الاقتضاب بهذه التحية الشعرية التي تتأرّج بزكيّ الشذا:

أتيتُ إلى أبهى المدائن والجد ... وشامخةِ التاريخ والصرح والعهد
وجئت إلى أرض القواسم شادياً ... بما حفل التاريخ بالذكر والحمد
تسير بعزمٍ في معارج عزها ... على مدرَج الإنجاز بالعلم والرُشد
ومن قبلة الإسلام مِن دار هَوذةٍ ... ومن حاتم الطائي أبث بما عندي
وأهدي تحايا الحب نحوَ أميرها ... فسلطانُ قد أعطى الثقافة من بُعد
مرابع قد نافت علوماً ورفعةً ... مكاناً ونهجاً بالثقافة تستهدي
لك الفضل يا سلطان حيث جمعتنا ... وأعطيتنا حباً ووداً بلا حدّ
ومن موطن التاريخ والمجد والهدى ... إليك التحايا في مذاقٍ من الشَهد
أيا ندوة التاريخ حين يصوغه ... رجالٌ لهم في منهج البحث والرشد

مآثرُ علمٍ قد زهَتْ بمباحثٍ ... موثقةٍ بالعلم تعبق بالجِدّ
هي الزاد للأجيال في منهج الهدى ... وقد حفلت بالصدق تحلو لذي الوِردِ
فيا أيها التاريخ سجِّل لقاءَنا ... ودوِّنهُ في سِفرِ المعارف والمجد
وما أجمل التاريخ يجمع شملَنا ... نتيه به فخراً ونرجع بالود
فيا إخوة التاريخ في كل ساحةٍ ... دراساتكم تبقى هي الضوءَ للرشد
أفيضوا علينا من بديع عطائكم ... فتاريخُ أسلافي رحيقٌ من الشَهد
مزيداً من الإبداع والمنهج الذي ... ينير طريق الجيل في العمل المُجدي

تحية للّقاء العلميّ السنويّ الثامن المنعقد في المنامة لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون

ألقيتُ هذه الكلمة والقصيدة في حفل الافتتاح.

أيها الإخوة المؤرخون! تحية وسلاماً ما سجا ليل وأشرق نهار، وما تعاقب النيّران وتجدد الجديدان.

هذه تحية من فيض الوجدان والخاطر، أطلقها القلب بفيض عذب من عبق الطيب لهذا الملتقى التاريخي، وبين التاريخ والشعر وشائجُ قربى ورحم، بدأت ببداية كلٍ منهما وتطورت بتطوره عبر الزمن، حيث يجتمع الشعر بخياله الواسع وآفاقه المحلّقة مع التاريخ الذي يحتل مساحة كبيرة من الديوان الشعري، وصار الشعر واحداً من مصادر الدراسات التاريخية، وكانت الملاحم التاريخية هي تاريخ الأمم الذي تعتز به وتتناقله جيلاً بعد جيل، وقد صنع بعض الشعراء مطوَّلات شعرية استمدوها من التاريخ الإسلامي، وهناك دواوينُ شعرية صدرت بمسميات تاريخية، ترسم صوراً من التاريخ في أجمل صوره وأبهى حلله، فهما صنوان. وكم ازدانت المهرجانات واللقاءات بالشعر، بدءاً بالشعر المسرحي ووصولاً إلى الروايات التاريخية الحديثة.

وهذا الاحتفال واللقاء ويَكسب جمعيتنا التاريخية قيمة سامية مجيدة لكي تواصل رسالتها الجليلة في أوسع المجالات وأرفع المستويات:

يا حاديَ الرَكبِ إني باللِقا ثَمِلٌ ... قد شفَّني الوجدُ للتاريخ والأدبِ

تحيةَ الصدق والإيمان أحمِلُها ... من سالف المجد حتى آخرِ الحِقَبِ

من الرياض ومن بدرٍ ومن أُحُدِ ... جئنا المنامةَ دار الوُد والحسَبِ
"أوالُ" كم صفحاتُ الدهر زاهيةٌ ... بذكرها درةَ التاريخ للعربِ
جمالها الساحرُ الوضّاحُ يفتنني ... أحقُّ في الوصف مِمّا خُطّ في الكتب
كم في مغانيه من حُسنٍ ومُرتبَعٍ ... تبارك اللهُ كم في الكون من عجَبِ
حيث الرُّبى تتجلى في محاسنها ... جِنانُها الخُضرُ تشفي كلَ مغترِبِ
حيِّ الرُبوعَ وعرّجْ في مدارجها ... تلق المكارمَ عند السادة النُجُب
من الخليجِ إلى تطوانَ تجمعُنا ... أواصرُ الدين والتاريخ والنسبِ
هذا الخليجُ يصوغ الحبَّ أغنيةً ... وينشُر السِلمَ في الأفراح والغضبِ
إني أحيي لقاءاتٍ مُحبَّبةً ... فحقِّقوا بالتآخي ساميَ الرُتَبِ
أصالةٌ جمعتْنا وهي باقيةٌ ... من مَشرقِ الضاد حتى المَغربِ العربي
تألّقتْ في سنا الأيام وابتهجت ... فيها المودةُ واختالت على الشُهُبِ
تحيةٌ ملؤها الإخلاص مفعَمةٌ ... بالشوق والحبِّ من رَضوى إلى حلَبِ
وتملأُ الأفقَ بالأشواق عاطرةً ... تجيش في النفس ألحاناً من الطرَبِ
ولنسعدِ اليومَ بالتاريخ ندعمُه ... بالصدق والبحث في جدٍ وعن كثَبِ
بحثاً وعلماً وتاريخاً ومعرفةً ... بها سما سلفٌ على ذُرى الشُهُبِ
سمت بكم همةٌ للبحث غايتُها ... تلك التواريخُ صارت موضعَ العجَبِ
تاريخنا حافلٌ بالمجد من قِدمٍ ... وفيه مجدٌ قويٌ ثابت الطُنُبِ
يا إخوةَ العلمِ يا مَن مِن حضارتِهم ... نورُ البيانِ بلا لغوٍ ولا صَخَبِ
كم أنجبت أرضُنا من عالمٍ فطِنٍ ... عبرَ الزمان كبدرٍ غير محتجِب
فكانَ ما كانَ من علمٍ ومعرفةٍ ... لأمة العُرب ذات الفضل والحسبِ
شادوا الحضارةَ والأخلاقُ سامقةٌ ... وعزةٌ مثلَما في سالفِ الحِقَبِ

تبنى الحضاراتِ بالأخلاق تدعمُها ... وبالمكارم والتاريخِ والغلَبِ
إن المؤرِّخ في صدقٍ وفي ثقةٍ ... هو الحفيظُ على الأمجاد والرُتَبِ
وكم طموحاتُه تاقَت وفي لهَفٍ ... أكرم به من مُجِدٍّ دائم الدَّأَبِ
يبقى لأمته رمزاً تُمجّده ... قد ظل يَسعى بعزمِ النابهِ الأرِبِ
كلَّ المشاهدِ تاريخُ الشُعوب يَعي ... فهو الأمينُ على الآثارِ والكتبِ
يُحقّقُ اللهُ آمالَ البلاد به ... في عزمه هِممٌ كصيِّبِ السُحُبِ
الله أكبرُ في تاريخنا عِبرٌ ... تِلكُم روائعُه بالجُهد والنَصَبِ
وكلُّنا إخوةٌ فيما نؤمله ... فامضوا بصدقٍ فأنتم عزةُ العربِ
دام الوئامُ عميقاً في تجمُعِنا ... وزانَه ما همى بالهاطل اللجِبِ
يفيضُ في كل نفسٍ من مآثره ... هذا التعاونُ بين الإخوة النُجُبِ
يا معشرَ الإخوة الأحبابِ معذرةً ... فلا تلوموننني في القول والطلَبِ
إني لأُخلصُ في قولي وفي عملي ... أدعو لقوميَ بالتوفيق والنَشبِ
فباركوها خُطًى للعلم مُنطلِقاً ... وحققوها مُنًى في غاية الأربِ
أحيوا لحاضركم أمجادَ سالفِكم ... لتستنير بكم في حالكِ الكُرَبِ
دُمتم من الله في حفظٍ وفي ظَفَرٍ ... للعلم والبحث والتاريخ والأدبِ

المنامة ٨/ ٤/ ١٤٢٨هـ - ٢٥/ ٤/ ٢٠٠٧م.

تحية للملتقى التاريخي الحادي عشر في البحرين

إنها لفرصة طيبة أن ينعقد هذا الملتقى التاريخي في رحاب مملكة البحرين الغنية بالمعالم التاريخية والمواطن الأثرية، وإن زيادة التواصل بين أهل الاختصاص من أبناء دول مجلس التعاون يُعدّ من أهم الأهداف التي تسعى جمعية التاريخ والآثار إلى تحقيقها. ويسرني بهذه المناسبة أن أحيّيكم بهذه الباقة الشعرية:

أتينا إلى البحرين بالفلّ والوردِ ... يفوح شذا الإيمان بالشوق والوُدِّ
أحييكِ يا دار الخليفة شادياً ... بما سطّر التاريخُ بالفعل والحمد
مغانيكِ أعطاها الإلهُ جمالَها ... وسِفركِ بالتاريخ يعبِقُ بالنَد
"أوالُ" وقد قالوا كثيراً بذكرها ... وكم قيل فيها من قريبٍ ومن بُعد
تسير بعزمٍ في معارج عزها ... على مدرَج الإنجاز بالعلم والرشد
تراثٌ عظيمٌ عن سنينَ تصرّمت ... صروحٌ بها التاريخُ في سِفره يَهدي
لقد حفظ التاريخُ فيها مآثراً ... هي الذكر للماضي وفي الغور والنَجد
وجمعية التاريخ قد ذاع صيتها ... بخير اجتماعٍ طيّب الذكر والحمد
لقاءاتها مدروسةٌ وعطاؤها ... يطوف بأوطان الخليج بلا حد
بحوثٌ بها التاريخ في كل جانبٍ ... حفاظاً على التاريخ بالأخذ والرد
ودام خليجُ العُرب بالعز شامخاً ... تضوَّع رمزاً في وفاءٍ مع الوُدّ
وأسأل ربي أن يدوم محبةً ... إلى منهجٍ وافٍ وبالعز والمجد

البحرين - المنامة، ٦/ ٥/ ١٤٣١هـ - ٢١/ ٤/ ٢٠١٠م

رحلة إلى اليمن

منذ مدة والنفسُ تحدّثني بزيارة اليمن والوقوفِ على معالِمه وأخباره وآثاره.. ولكَم قرأتُ الكثير من كتابات المؤرخين اليمنيين ممن لهم باع في التاريخ تأليفاً وتحقيقاً ودراسات، ولقد تتبعت كتابات مؤرخ اليمن المعروف أبي محمد الحسنِ بن أحمدَ الهمْداني صاحب "الإكليل" و"صفة جزيرة العرب" الذي تبعه واعتمده الكثير من المؤرخين والمحققين من قدامى ومعاصرين، وكذا صاحبُ "معجم البلدان" ياقوتُ بن عبد الله الحموي وغيرهم، فقد أحاطوا بأوصاف تلك البلاد، وتاريخها ومعالمها وآثارها وما يتعلق بأوصافها وآدابها وشعرائها.

وقد سُميت بالخضراء كما يقول الهمداني لكثرة أشجارها وزروعها وثمارها، ولقد كانت حفاوة العلماء والمؤرخين والباحثين كبيرة في هذا المجال، كل ذلك شدّني إلى الوقوف على تلك المعالم فتطلعتُ إلى الفرصة المناسبة للقيام برحلةٍ إلى تلك الرُبوع.. فصادف أن تلقّيتُ دعوة كريمة من مدير جامعة صنعاء ورئيس مركز البحوث والدراسات اليمني بالحضور للمشاركة في أعمال الدورة الثامنة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية، فتوجهتُ يوم الجمعة الموافق ١٧/ ١٠/ ١٤٠٥هـ على متن إحدى طائرات البوينج، وقد أقلعتْ بنا الطائرة من الرياض في رحلة استمرت زهاءَ ثلاث ساعات حيث مررنا بمدينة تعِزّ، ولقد كنت أشاهد جبال السروات ثم جبال اليمن الشامخة حتى وصلنا إلى صنعاءَ المدينة التاريخية، والتي كتب عنها المؤرخون كثيراً، فهي من أقدم المدن، نعم ها هي صنعاء والتي قال فيها أبو محمد الحسنُ الهمْداني:

أرضٌ تـخـيّـرهـا سـامٌ وأوطـنـهـا وأسَّ غُـمـدانَ فـيـهـا بـعـدمـا احـتَـفـرا
أُمُّ الـعُـيـونِ فـلا عـيـنٌ تَـقَـدَّمُـهـا ولا عـلا حـجَـرٌ مـن قـبـلـه حَـجَـرا

وقال أيضاً أحمدُ الرَّداعي، وما أكثر ما قال الشعراء، ولعله يؤرخ هنا لها:

صـنـعـاءُ ذات الـدُور والآطـامِ والـقِـدَم الأقـدام ذي الـقُـدَّام
والـعـز عـن ذي الـسـطـوة الـغـشَّـام أُسَّـت بـعِـلـمٍ لابـن نـوحٍ سـامِ
بـعـلـم ربٍ مـلـكٍ عـلّامِ إذ رادهـا سـامٌ بـلا تَـوهـام
ورادهـا مـن قـبـلِ ألـفـي عـام مـا بـيـن سـفـحـي نُـقُـم الـنـقـام
وبـيـن عـيـبـان الـمـعـيـن الـسـام فـأسـهـا فـي سـالـف الأيـام

ويقول الهمداني:

مـا زال سـامٌ يـرود الأرض مـطّـلِـبـاً لـلـطِـيـب خـيـرَ بـقـاع الأرض يـبـنـيـهـا
حـتـى تـبـوّأ غُـمـدانـا وشـيّـدهـا عشرين سقفاً يناغي النجمَ عاليها

فلقد كانت معشوقة الشعراء، وما أكثر ما قرأنا من أشعار رقيقة يتغنون فيها بقصائدَ مُفعمة بالحنين والشوق لهذه المدينة وكنت أتلفت يمنة ويسرة في ربوع هذه المدينة، وأنا في طريقي إلى فندق "سبأ" فأرى فيها تاريخ الحياة لأمم عديدة تذكرتُ خلالها عرش بلقيسَ وسدَّ مأرب وسبأ وحِمْيرَ ومَعين والتتابعة وسيف بن ذي يزَن... إلخ.

وحضارة مأرب حضارة رواها القرآن الكريم في سورة سبأ وأطلق عليها المؤرخون اسم أرض "الجنتين".

ومدينة "مأرب" هي العاصمة التاريخية لليمن، وتقع على بعد مائة وسبعين كيلاً شرق العاصمة صنعاء وتربطها بالعاصمة طريق مرصوفة..

وهي مدينة عريقة عاشت حضارات دول غابرة، هي دولُ معين وسبأ وحِمير، وبها آثار تلك الحضارات من منشآت ومعابد مثل معبد الشمس، وطرق وسدود لا تزال أطلالها شاهدة. وقد حظيت هذه المدينة الأثرية - وخصوصاً منذ مطلع هذا القرن - باهتمام الباحثين وعلماء الآثار العرب والأجانب، كما شد إليها السُوّاح من كثير من بلدان العالم، وكتبوا عنها عدة مؤلفات وأبحاث، كما حظيت اللغة اليمنية القديمة وأبجديّتها التي توجد نصوص منها منحوتة على الصخور والكهوف والجبال في مدينة مأرب وما جاورها باهتمام كثير من الدارسين اليمنيين الذين أخرجوا عدداً من هذه النصوص التي تسمى "خط المُسنَد"، وقاموا بترجمة مفرداتها التي لا يزال البعض منها يُنطق حتى اليوم ضِمنَ بعض اللهجات اليمنية.

وفي اليمن معالم تاريخية كقصر غُمدان الشهير ومسجد الصحابي الجليل معاذ بن جبل، وجامع صنعاء، والهمداني والزبيدي وعمرو بن معديكرب وغير ذلك مما هو موضع اهتمام الباحث والمؤرخ والأثري والأديب.

وتذكرت الرحالة المعروف أمين الريحاني وهو يدخل صنعاء مبهوراً بزحمة التاريخ وجلال الزمن، حقاً إن الحديث عن هذه البلاد وما فيها له نكهة تاريخية تستهوي القارئ والمؤرخ والرحّالة بل وعلماء التاريخ والآثار.

إن صنعاء مدينة محاطة بالجبال تمتد شرقاً وغرباً كأنها وهي كلها بيضاء سلسلة من التِلال في سهل مخضرّ جميل وعن شمالها وجنوبها هضاب وآكام وأودية.. وهكذا نزلنا في صنعاءَ مردداً قول الإمام الشافعي رحمه الله الذي سار سيرَ الأمثال:

"لابد من صَنعا وإن طال السفر".

وقول الشاعر:

يا حبذا أنتِ يا صنعاءُ من بلدٍ وحبذا واديك الظهرُ والضلع

وما أكثر ما بكى شعراء اليمن بين يديها ومن ذلك قولُ أحدهم:

إني إلى صنعاء يحملني وجه النهار وترحل الأصل

فمتى تظلّلُني مآذنها ويضيء من أحضانها الجبل

أأموت يا صنعاء مغتربا لا الدمعُ يدنيني ولا القُبَلُ!

لقد اطلعت على الكثير من المعالم والآثار التاريخية حيث تمكنت من التجول بين عدد من المدن والقرى.. ولقد قمت بزيارة لجامع صنعاء الكبير والذي بناه أبانُ بن سعيد وقيل أيوبُ بن يحيى في السنة السادسة للهجرة، وقد بُني بأحجار كبيرة ضخمة متقنة النحت، به زخارفُ ونقوش وسقفه تُحفة من تُحف الفن الإسلامي النادرة ويحيط بالسقف من جميع جنباته حزام خشبيّ محفور عليه آيات من القرآن الكريم بالكتابة الكوفية.

وفي هذا الجامع مكتبة ضخمة تحتوي على مجموعة كثيرة من المخطوطات والمصاحف المكتوبة على الرقّ بالخط الكوفي والحجازي على مختلف الأحجام، وقمت بزيارة لدار الكتب والمخطوطات ولجامع صنعاء حيث استقبلنا عبده حسين صلاح حيث قام يشرح لنا المعدات الفنية لترميم المخطوطات وتجليدها وتصويرها وفرز كل نوع على حدة.. ثم دخلنا قاعة معرض المخطوطات الحافلة بشتى المخطوطات المكتوبة بالخط الكوفي والحجازي والنسخي، وكذا بعضُ النقوش وحروف المسنَد.

والواقعُ أن الجامع يزخر بثروة كبيرة من المخطوطات في شتى العلوم والمعارف، ومن جامع صنعاء خرجنا نتجول في وسط المدينة

القديمة، ومشاهدة بيوتها وآثارها فزرنا قصر غُمدان ومسجد صلاح الدين وغرفة القُلَّيس وسوق المِلح وغير ذلك من أحيائها القديمة وحواريها وتراثها المعماري والأثري وأبوابها العشرة. أما مبانيها فهي تضُمّ أنماطاً من المباني العربية والتي كانت شائعة قبل الإسلام، ثم النمط الإسلامي الذي انتشر وشاع بعد ظهور الإسلام، ثم النمط العثماني، وكلُّ صنعاء القديمة ما زالت تحتفظ بكل هذا التنوع مع ملاحظة الزخرفة وتعدُد الطوابق.

حقاً إن صنعاء لمدينة قديمة يقال إنها أول مدينة عُمِرت بعد الطوفان وسميت بسام بن نوح، ولكَم حفلت كتبُ التاريخ والأدب بأخبارها، وهناك عدد جمّ من الشعراء والمؤرخين والأدباء عُنوا بوصفها وآثارها ومعالمها ونقوشها وأنسابها وتاريخها وأخبارها.

دار الكتب، المخطوطات:

قمتُ **والصديقَ** الدكتور عبد الله الغنيم عميد كلية الآداب بجامعة الكويت ورئيس تحرير مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية بزيارة لهذه الدار الحافلة بخزائن المخطوطات وقد استقبلنا رئيسها القاضي إسماعيل بن علي الأكوع من المحققين والمشتغلين بكتب التراث وله اهتمام وخبرة بالمخطوطات والتقينا عنده بكل من مدير المتحف الأستاذ زيد بن علي عنان وبعض الإخوة العلماء، فكان الحديث عن الكتب والمخطوطات والوثائق ودَور مراكز البحوث والمخطوطات في نشر ذلك وأهمية الحفاظ على التراث ودور العلماء والباحثين.. وجهود البعض من المستشرقين في هذا المجال وأهمية تسهيل الحصول على المخطوطات للباحث والاستفادة منها بأسهل الطرق.. ولقد أمضينا وقتاً ممتعاً انغمسنا خلاله في أغوار التاريخ والتراث والعلم. حقاً إنّ واجب جامعاتنا ومراكز

البحوث الاهتمام بالتراث وتحقيق المخطوطات، كما أن الكثير من المخطوطات مهددة بالضياع ما لم نبادر إلى صيانتها وترميمها وحفظها خاصة ما كتب منه على الرقوق والجلود، كما أن الاهتمام بالوثائق ناحية مهمة باعتبارها مصادر مهمة في البحث والدراسة.

زيارة السفارة السعودية:

قمت بزيارة لسفارتنا وقد وجدت من سعادة السفير الأستاذ علي القفيدي كل حفاوة وتقدير ولقد حرَص أكرمه الله على إكرامي فدعاني لحفل غداء حيث دعا الإخوة السعوديين فكان لقاء أخوياً ودياً وفي أثناء وجودي هناك قمت بزيارة مكتب المُلحق التعليمي السعودي، ولقد سُررت بما يقدمه المكتب من خدماتٍ جليلةٍ حيث إن هناك بعثة تعليمية سعودية كبيرة تقوم بالتدريس في مختلف المناطق، وحكومتنا الجليلة تأتي في مقدّمة الأمم بذلاً وعطاء حيث بناء المدارس والمستشفيات والطرق والمساجد.. ثم خرجتُ من مكتب الملحق التعليمي بعد أن زودني بمجموعة من صحف بلادنا.

زيارة مدينة تعِز:

مدينة تمتاز بجمالها الأخّاذ وجمعت بين الأصالة والمعاصرة.

وفي الصباح الباكر ذهبتُ إلى مدينة تعز وانطلقت بنا السيارة شطرَها وكان الطريق مائتين وخمسة وستين كيلاً جنوبَ العاصمة ومررنا بمناطقَ خضراءَ وجبال مجلَّلة بالجمال والخُضرة وسهول تغطيها المزارع ومررنا بعشرات البلدان والقرى كذمار، والتي سبق أن تعرضت لكارثة الزلزال حيث شاهدنا آثاره وكذا (إب) و(يريم) وغيرها من القرى والبلدان وهي أجمل مناطق هذه البلاد، ولقد صعدنا جبالاً شامخة فارعة فكنا نرتفع تارة ونهبط أخرى، إنها لقِمم شامخة خطرة كجبل سمارة الشهير وكان

مرافقي الأخ محمد المعلّمي يشرح لي أسماء هذه الأماكن والجبال والوديان وكان السائق ماهراً حاذقاً بالطريق فعندما رآني مكتئباً من وعورة الطريق قال لي: لا تخف فقد ترددتُ مع هذا الطريق عدةَ سنوات، وما زلت أتردد بين جنباته فهو شيءٌ سهل، فقلت: زادك الله نشاطاً وقوة ومهارة، فعليك بالرفق ففي التأني السلامة وفي العجلة الندامة. ولقد تعودتُ على صعود واجتياز مناطق جبلية أصعبَ منها وهي تبعد عن العاصمة صنعاء مائتين وستة وخمسين كيلاً.

ثم لاحت لنا تعِزّ المدينة الخضراء يحتضنها الجبل الأشمُّ "صبِر" وهي مدينة جميلة تقع على الربوات المتناثرة هنا وهناك تغريك خضرتها وجبالها وجمال مبانيها، وقد زرنا أسواقها القديمة وجامعها وحصونها القديمة وجبالها الشامخة وقمت بزيارة للمتحف الوطني والعديد من المعالم والآثار القديمة والمناطق السياحية وتعتبر "تعز" من المدن التي لعبت دوراً في تاريخ اليمن القديم والمعاصر لاسيما في العصر الإسلامي الأول.

ثم غادرناها إلى بعض القرى والأرياف حتى عدنا إلى العاصمة بعد أن مررنا بالعديد من قصور اليمن ومعاقلها الكثيرة والأثرية وهي غاية في فنّ العمارة ومن القصور التاريخية التي لا زالت باقية قصرُ غُمدان وصِرواح وناعط وفيه يقول الهمداني:

فمن كان ذا جهلٍ بأيام حِمْيرٍ ... وآثارِهم في الأرض فليأت ناعطا
يجد عمداً تعلو الفنا مرمريّةً ... وكرسي رُخامٍ حولها وبلائطا
ملاحقها لا ينفُذُ الماءُ بينها ... ومبهوقةً مثل الفراخ خرائطا
ترى كل تِمثالٍ عليها وصورةٍ ... سباعاً ووحشاً في الجبال وباسطا

وفي قصر صرواح يقول الشاعر:

أبونا الذي كانت بصرواحَ دارُه وفي جبل النّعمان عزٌ تمكّنا
ونحن ورثنا عزَّ خولانَ ذي الندى مآثر عزٍ مثلُها لم يدم لنا

وقبل أن نعود للعاصمة لاحت لنا قصورها فتذكرت قول الشاعر:

إذا طلعنا جبال السود لاح لنا من أرض صنعاء مُصطافٌ ومرتبَعُ

وطلبت من مرافقي أن نعرِّج لمشاهدة بعض الآثار، ثم عدنا إلى الفندق بعد رحلة حافلة بالأدب والتراث والمعرفة والآثار والمشي والبرد وهطول المطر واستغرقت في نوم عميق حتى الفجرِ حيث الاستعدادُ للسفر مردّداً قول القائل:

نزلنا هاهنا ثم ارتحلنا فدُنيانا نزولٌ وارتحالُ

رحلة إلى حضرموت "بلاد الأحقاف"

كم يكون المرء سعيداً برؤية بلد من بلدان أمته المترامية الأطراف ولقد أقر الله عيني بزيارة البلدان العربية، ولحضرموت في تاريخ الحضارة العربية سِفر خالد ولقد سعدتُّ بحضور فعاليات احتفال تريمَ الثقافي بمناسبة اختيارها عاصمةً للثقافة الإسلامية لعام ٢٠١٠م وحضور ندوة "الربانيُّون وراثة النبوة وعظم المسؤولية" التي عُقدت خلالَ الفترة من ١٩-٢١ ذي القَعدة ١٤٣١هـ بمدينتَي سيئون وتريم بدعوة كريمة من رابطة العالم الإسلامي، ولقد غادرت الرياض مع ثُلة مثقفين ومسئولين ورجال أعمال وإعلام وأكاديميين، وانطلقت الرحلة من الرياض إذ حطت الطائرة الميمونة عند الساعة الحادية عشرةَ صباحاً في مطار سيئون والتي كان استقبالها لنا حافلاً من رجال العلم والثقافة والدين والتربية ومحافظ حضرموت ونائب السفير السعودي عبد الله السلمي، ثم انطلقنا في الحافلة إلى الفندق في بلدة سيئون، وبعد استراحة في الفندق توجهنا لقاعة الاحتفالات فكان اللقاء بمعالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، ومعالي وزير الأوقاف اليمني ورئيس مجلس القضاء الأعلى وعدد كبير من العلماء والأدباء والمشايخ الذين حضروا من المملكة ومن اليمن ومن عدد من الجامعات في المملكة واليمن وكوكبة من علماء قطر والإمارات وعمان، فكانت هذه الندوة من الندوات العلمية والفكرية حيث قُدمت عدد من البحوث القيمة في ثلاثة محاورَ رئيسية في كل محور أربعة موضوعات، وقد كانت البحوث المقدمة والمشاركات على درجة عالية من الأهمية لامست قضايا فقهية معاصرة، وعملت على ترسيخ مفاهيم وثوابتَ إسلامية جوهرية،

وخرجت بتوصيات مهمة ورؤىً مشترَكة للعديد من القضايا الإسلامية - ولقد أثرى هذه الندوة الحشدُ الكبير من العلماء ببحوث علمية وروح عالية والتقاء الآراء وتلاقُح الأفكار بين علماء البلدين الشقيقين ثم قمنا بعد انتهاء جلسة المؤتمر بزيارات لمدينة تريم وهي العاصمة الدينية لحضرموت منذ القرن الرابع الهجري وهي تقع شرقَ سيئون وتبعد عنها حوالي خمسة وثلاثين كيلاً وعن عاصمة المحافظة المكلا ثلاثمائة وستة وخمسين كيلاً وترتفع عن سطح البحر ألفين وسبعين قدَماً، وتقدَّر مساحتها بحوالي ثلاثمائة وستة وخمسين كيلاً، وترجع المصادر التاريخية تسمية مدينة تريمَ إلى أحد ملوكها وهو تريمُ بن كِندة وأول من عمرها تريمُ بن حضرموتَ بن سَبأ، وقد جاء ذكرها في النقوش اليمنية القديمة وكانت عاصمة لملوك كندة وقد عُرفت على مر التاريخ بكثرة مساجدها وزوايا العلم فيها، ولقد شاهدنا العديد من المساجد وأربطتها ومعاهدها ومعمارها الطيني وحِرفها وفنونها التقليدية وآثارها التاريخية ومكتباتها ومخطوطاتها.

وفي صباح يوم الجمعة ٢٩/ ١٠/ ٢٠١٠م أقيم حفلُ اختتام الندوة العلمية بمدينة تريم، وألقيت فيه عدد من الكلمات بحضور عدد كبير من العلماء والمسئولين والأمين العام لرابطة العالم الإسلامي ورئيس مجلس القضاء الأعلى في اليمن، وألقى الدكتور عبد الله التركي كلمة حيّا فيها الجمع المبارك من العلماء والأكاديميين المشاركين في الندوة مثمّناً جهود خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز والرئيس علي عبد الله صالح لاهتمامهما بالعلماء وأهل العلم والمؤسسات العلمية، مشيداً بجهود القائمين على تنظيم الندوة وفي مقدمتهم المهندس عبدالله أحمد بقشان والدكتور عمر بامحسون، كما ألقيتُ كلمة وقصيدة بهذه المناسبة تحدثتُ فيها عن الزيارة التاريخية لبلاد الأحقاف والاطلاع على

تاريخها وآثارها ومعالمها متذكراً قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١] والذي انطلقت منه أكبر هجرة عربية استطاعت نشر الإسلام بالقُدوة الحسنة والكلمة الطيبة والمشروعات الثقافية الرائدة.

لقد كان لحضرموت صورة حضارية، حيث التاريخ والتراث والحياة والعمل، وتريم غنية بتاريخها وتراثها الحضاري والإسلامي ولعلمائها أثر كبير في نشر الإسلام وفي ذاكرة التاريخ العربي الإسلامي، ولقد كانت فرصةً للتجول في ربوع وادي حضرموت الذي يضم بين جانبيه عدداً من المدن والقرى والمزارع والمناظر والمشاهد الأثرية والتاريخية وكذا وادي "دوعن" الذي عُرف بإنتاج العسل أهمّ مقوّمات اقتصاد سكانها، وللأسف بحثنا عن العسل فقيل لنا قد انتهى موسمُه، وزيارة مدينة "شبام" ذات الطابع المعماري الجميل إذ تصل أدوارُ المباني إلى ثمانية مع أنها مبنية كلها من الطين منذ زمن بعيد، ورأينا عدداً من السُواح الأجانب وقد أدهشتهم هذه المناظر والمباني ولا غرو؛ فلحضرموتَ في تاريخ الحضارة العربية سِفر ذهبيّ خالد.

حقاً إن الرحلات الجماعية المنظّمة وخاصة عندما تكون مع جمع من العلماء والمثقفين تضيف سعادة لا تتحقق في الرحلات الفردية، وتحية للدكتور بامحسون الذي بذل جهداً كبيراً في رعاية الجميع وتوفير الراحة والزيارات ولرجل الأعمال المهندس عبد الله بقشان الذي وفّر طائرةً لنقل الضيوف.

ثم غادرنا تلك الرُبوع والنفوسُ مفعَمة بتلك المشاهد ومليئة بالذِكريات عن منطقة معرقة في القِدم وضاربةٍ جذورُها عبرَ التاريخ وهي بلاد الأحقاف التي ذكرها الله في كتابه بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١].

لقد كانت هذه الزيارةُ لحضرموت حافلة بزيارة عدد من الأمكنة والمناطق الآثارية والتاريخية والتعرُّف على الحياة الثقافية مردداً قول القائل:

وجئت أستنطق التاريخَ في يَمَنٍ وكلُّ ما تحتوي أفياؤه عجَبُ

في أرض الرافدين

يحرص المرء دائماً على زيارة بلدان العالم العربي والإسلامي، وخاصةً عندما يكون البلد ذا تاريخ حافلٍ بالمعالم والآثار، وكما قال القائل: "ليس من سمع كمن رأى". وشاء اللهُ أن تتحقق لي تلك الأمنية.

فقد تلقيت دعوةً من رئيس مركز دراسات الخليج العربي في جامعة البصرة بحضور الدورة الثانيةَ عشرةَ لمراكز الدراسات والوثائق والتي تستضيفها جامعة البصرة، وكان قد تقرر أن تقام الدورة في يوم ٢٠/ ٥/ ١٤١٠هـ.

وغادرت الرياض يوم الاثنين الموافق ١٨/ ٥/ ١٤١٠هـ متوجهاً إلى الكويت، فوصلتها الساعة السابعة مساءً. ولم تكن هذه هي الزيارةَ الأولى للكويت، فقد سبق أن زرتها منذ عشر سنوات، ومكثت ليلةً في ربوعها، التقيت فيها في ديوانية الشيخ عبد العزيز بن سعود البابطين بمجموعةٍ من الأدباء والشعراء والوجهاء من أبناء الكويت الشقيق، وقد غمر الجميعَ أبو سعودٍ ببشاشته ومكارم أخلاقه، ووجدنا منه كل حفاوةٍ وتقدير.

ثم توجهتُ صوبَ مدينة البصرة وسط طريقٍ معبَّدٍ جميل، وتوقفنا عند الحدود الكويتية العراقية برهةً قصيرةً من الوقت في قرية "سفوان"، وهناك تذكرتُ قول الشاعر:

رويدَ بني شيبان بعضَ وعيدكم تلاقُوا غداً خيلي على سفوانِ

ثم استأنفنا السير إلى مدينة البصرة مدينة التاريخ والتراث، وكان الجو دافئاً والشمس مشرقةً، والسماء صحوٌ خالية من الغيوم، ولما

دخلناها اتجهنا إلى فندق "شيراتون البصرة"؛ حيث كان مقرراً أن نسكن فيه، ووجدنا في استقبالنا مجموعةً من الإخوة من مركز الدراسات والجامعة.

وبعد العشاء خرجنا للتنزُّه في أسواق المدينة ورؤية شطّ العرب الذي وصفه الشعراء والكتاب والرحّالون، ثم مشاهدة بعض معالم البصرة وآثارها.

ولكَم تذكرتُ وأنا أسير في طرقاتها وبين ميادينها وأسواقها تاريخ هذه المدينة، وكذلك أمجادها العلمية، وإسهامات علمائها ومفكريها وشعرائها خلال حِقب التاريخ، كالقرن الأول الهجري أو في العهد الأموي أو في القرن الثالث الهجري، أو غير ذلك.

فقد كان للبصريين من نحاةٍ وأدباء ومحدّثين إسهاماتٌ جيدةٌ في مجالات اللغة والنحو والأدب وعلوم التفسير، وغيرها، فقد أنجبت مدينةُ البصرة العديد من العلماء الأفذاذ، كالجاحظ وأبي عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد الفراهيدي والأصمعي والمدائني والكندي وابن الهيثم، كما سكنها الصحابي الجليل أنس بن مالك، ومحمد بن سيرين والحسن البصري، وغيرهم من العلماء الأجلاء.

لقد كنت أتذكر تاريخ أولئك العلماء والأعلام وأنا أطوف بميادين البصرة، فقد تميزت البصرة على غيرها بتعدد المراكز الفكرية والعلمية إذ ذاك. إن هذه المدينة تمثل تاريخاً عريقاً ومجداً إسلامياً رفيعاً.

وبعد جولة عدنا إلى الفندق، ثم بعد تناول طعام العشاء كان هناك لقاء تعارف بين أعضاء الوفود المشاركة في الدورة.

وفي صباح الأربعاء توجهنا إلى جامعة البصرة، وقد غصّت قاعة

الاحتفال بالمدعوين من رجال العلم والمعرفة وأساتذة الجامعة، وقد افتتح الدورة مديرُ الجامعة الذي رحب بهذا اللقاء لمراكز الدراسات والوثائق في مدينة البصرة مدينة التاريخ.

ثم ألقى رئيسُ مركز دراسات الخليج العربي كلمة ترحيبية، ثم ألقى معالي الشيخ عبد الله بن خالد الخليفة الأمين العام لمراكز الدراسات والوثائق ووزير العدل والشئون الإسلامية في البحرين كلمة بليغة، حيّا فيها الحاضرين من العلماء، وتمنى أن يكتب الله لأمة الإسلام النصر والتأييد، وذكر أن البصرة كانت قديماً منارة تُشع منها أنوار العلم والعرفان، وتمنى للمؤتمر النجاح والتوفيق.

ثم بدأت أعمال الدورة، واستمرت يومين.

وخلال مُقامنا في البصرة وُجّهت لنا دعوات، وذهبنا لحضورها ولبّيناها، منها: دعوة مدير الجامعة في فندق الخليج، حيث ألفينا جمعاً حافلاً من رجال العلم والأدب، وكذلك حفل محافظ البصرة.

ثم توجهنا في اليوم الأخير إلى مدينة "الفاو"، وهي على مقربة من البصرة، ووصلناها بعد سير بالحافلات لمدة ساعة، وقصدنا إلى زيارة آثارها ومعالمها، ثم تجولنا في أرجائها وميادينها، وغدونا نجول في أنحائها، ثم اتجهنا إلى الجامع الكبير لأداء صلاة الظهر.

ولقد سألت الإخوة المرافقين لنا من أساتذة الجامعة عن أصل كلمة "الفاو"، وسبب تسميتها، فقيل لي: إن ذلك يعود إلى أن الفاو اسم لسفينة شراعية غرقت في نهر المهلبان - نسبة إلى المهلَّب بن أبي صُفرة -، وكانت تابعة للديلم، فسميت المدينة باسمها. وروى أحد الإخوة: أن الفاو كانت من أرقى مناطق العالَم المعروفة بكثرة وجود مادة الحِنّاء.

ولقد ذكر صاحب المنجد أن الفاو: "هو المضيقُ في الوادي والموضع الأملس، وأنها من نواحي العراق".

وهكذا أمضينا أياماً في مدينة البصرة الفيحاء، حيث لبثنا فيها من يوم الثلاثاء إلى صبيحة يوم الجمعة في حفاوة إخوان وعلماءَ أجلّاء، وزرنا مدينة العلم والتي اشتهرت بسوق المِربد، حيث كان سمة للبصرة، وقد لعب دوراً فكرياً، وظلت ذكراه قائمةً ترمز إلى شهرة المدينة في عالم الأدب والشعر، حيث كان مركزاً التقت فيه البادية بجميع ما فيها من موروثات حضارية وفصاحة لغوية وأصالة حافلة بالقيَم والتقاليد، وكان سوقاً للعطاء الفكري، وقد سألتُ الإخوةَ عن موقعه وحاله، فذُكر لي أنه بمرور الزمن تحول إلى محلة كبيرة مشهورة، كانت تسمى بـ"محلة المِربد". وقد وصفه ياقوت الحموي بأن هناك شارعاً من أصل شوارع البصرة، وسمي أيضاً بـ"شارع المربد".

وفي صباح يوم الجمعة ركبنا الطائرة نحو بغداد، وكانت المسافة زهاء ساعة ونصف، وكان معي في الطائرة بعض الكتب، فكانت خير زاد للمسافر، ولما هبطت بنا الطائرة في مطار بغداد كان في استقبالنا الأمين العام المساعد لاتحاد المؤرّخين العرب، والذي رحب بنا، ثم توجهنا صوبَ فندق المنصور، ثم دعينا إلى زيارة مركز التوثيق وحضور ندوة تاريخية، وقد دعي لها أكثرُ من أربعمائة مؤرخ ومفكّر من أنحاء العالم العربي، وقد حضر عدد من أساتذة الجامعات السعودية، وفي مقدمتهم الأستاذ الدكتور/ عبد الله الشبل وكيل جامعة الإمام محمد بن سعود والأمين العام المساعد لاتحاد المؤرخين العرب، والأستاذ الدكتور/ عبد الله العثيمين الأستاذ في جامعة الملك سعود، والأستاذ الدكتور/ محمد الشعفي، والدكتور/ عبد العزيز الشبل، وغيرهم. وقد ضمّت

الندوة نخبة من علماء التاريخ في الوطن العربي، ودعي لها بعض المستشرقين، وكان لقاءً حافلاً بالمناقشات العلمية والتاريخية، والحضارة الإسلامية المجيدة، والإضافات المفيدة.

وفي بغداد قمت بزيارة لمراكز الثقافة والمتاحف والوثائق، والسفارة السعودية ومكتب الملحق الثقافي السعودي، ومركز التوثيق الإعلامي، وسور بغداد وأبوابه، والمدرسة المرجانية، وسوق الشورجة، ومسجد الإمام أبي حنيفة ومسجد الخلفاء، والمتحف العراقي، حيث شاهدت آثار البابليين والأشوريين والسومريين، والآثار الإسلامية وما يحفل به من أمجاد هذه الديار التاريخية، وجامعة بغداد والمدرسة المستنصرية التي بناها المستنصر بالله سنة ستمائة وثلاثين، ومجموعة من آثار المدينة، ومكتباتها ومعالمها الحضارية.

ثم ذهبت بصحبة أخي الأستاذ حمد الركبان، الملحق الثقافي السعودي في العراق - وربُّ الدار أدرى بما فيها كما يقال - وتجولنا في المدينة، وزرنا دكاكين الورّاقين، والأسواق القديمة، كسوق الصفافير وسوق البزّازين، ومكتبة المثنى.

وقد شطّ بي الخيال حيث تذكرت بغدادَ وتاريخها العريق، ومجالس أولئك الخلفاء والعلماء والفقهاء والشعراء، وأين الكرخ والرصافة والجسر ودجلة والفرات؟ فقد دوّى ذكرها في المشرق والمغرب، وأين المنصور والرشيد والمأمون والمعتصم والبوبهيون والسلاجقة وغيرهم؟ وكانت تسمى: مدينة المنصور، ومدينة السلام، ومن أسمائها: الزوراء وقد بناها أبو جعفرٍ المنصور الخليفة الثاني للدولة العباسية سنة ١٤٥هـ وانتقلت إليها الدولةُ سنة ١٤٨هـ، ومن يقرأ تأريخ الخطيب البغدادي سيجد الأخبار والأيام والتاريخ والشعر، ولقد قيل: الصناعة في البصرة، والفصاحة بالكوفة، والخير في بغداد.

وبعد أن أمضيتُ يوماً كاملاً في أرجاء المدينة عدتُّ في الليل إلى الفندق، حيث قضيت تلك الليلة هائماً في ذكريات التاريخ والشعر والأدب والماضي السحيق.

وفي الصباح تهيأنا لجولة خارجَ بغداد، حيث زرنا بعض المدن العراقية ذات الذكر التاريخي، كبابل، وهي من المدُن القديمة ومن ذوات العجائب، وغدونا نجول بين أرجائها ومعالمها، وتذكرنا ما مرّت به من دهور وقرون وأيام وحضارات، كما زرنا "سامراء" ذات التاريخ والمجد العريض، فتجولنا بين أطلالها وأسوارها وجوامعها، وواصلنا فيها السير حتى عدنا إلى بغداد، ثم زرنا بعض الأحياء، كحي الكاظمية الواقع قُربَ دجلة، وفيه مسجدُ الإمام الكاظم، وحي الأعظمية، والمنصور، وغيرها من الأحياء، ثم غدونا نتجول في ربوعها، ونتذكر أيامها وتاريخها، وعلى جسر دجلة تذكرت قصيدة علي بن الجهم، تلك القصيدة الرصافية التي فتن الأدباء بها إلى يومنا هذا، وبمطلعها الجميل، ونُسجت حولها القصص والروايات:

عيونُ المها بين الرُصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وهي تزيد على أربعين بيتاً، وقد حفظناها ونحن صغار.

ومررت بالكرخ، فتذكرت قول الشاعر:

سقى الله بابَ الكرخ من مُتَنَزَّهٍ إلى قصر وضّاحٍ فبِركةِ زلزلِ

وخلال التَجوال في أرجاء بغداد سألت عن قصور الخلفاء التي ذكرها المؤرخون والشعراء، كقصر الخُلد الذي بناه المنصور، وقصر القوارير، وهو قصر زُبيدة بنت جعفر، وقصر التاج الذي كان داراً مشهورة من دور الخلافة في بغداد، والقصر الجعفريّ الذي بناه جعفرُ بن

يحيى البرمكي، وقصر الثريا الذي بناه الخليفة المعتضد بالله، وصفه ابن المعتز في قصيدته:

حللت الثريا خير دارٍ ومنزلٍ فلا زال معموراً وبُورِكَ من قصر

وعلمت أنه قد ذهب أثرها وانطمس بنيانها، ولم يبق لها ذكر إلا في أسفار التواريخ وكتب البلدان.

ومررنا بنهر دجلة فقلت لصاحبي: دعنا نملأ العين من مباهجه، فقد حفظنا من الأشعار فيه الشيء الكثير:

وأرى دجلة الذي فاض بالخير ـ ـر عليها وماج بالإيناس

وبعد.. فإن ذكريات التاريخ تتراءى أمام المرء وهو يتجول في تلك الأماكن، وسرنا بين تلك الأحياء حتى وصلنا الفندق، ولَشَدَّ ما تُبرِّح الذكريات قلب المرء حينما يستعرض التاريخ والأمجاد العربية الإسلامية.

وأصبحنا يوم الأحد نتجهز للسفر إلى الكوفة والنجَف وكربلاء، فعبرنا دجلةَ خارجين من بغداد الساعة التاسعة صباحاً، وسرنا نحو الجنوب، فمررنا بعشرات القرى والبلدان، منها: المحمودية، واللطيفية، والإسكندرية. ثم توقفنا قليلاً في المسيب، وعبرنا الفرات، وسرنا حتى وصلنا كربلاء، ثم النجف، حتى بلغنا الكوفة مهدَ علوم العربية وملتقى العلم والعلماء، فقد زخرت بالعلماء والشعراء والأدباء والخطباء، وكان لها دور عظيم وشأن كبير ومدرسة نحوية، وزرنا جامعَها الكبير، وسرحنا الطرف في جنباته وفيما حوله من دُور وآثار، وأخذ مُرافقنا يشرح لنا تاريخه، وقصر الإمارة ودور العلماء والمعالم الأثرية الباقية.

ثم توجهنا إلى الحلة - بلد الشاعر صفي الدين الحلي -، ثم رجعنا إلى بغداد، ووصلناها الساعة التاسعة مساء.

ولقد كانت رحلة ممتعة، ويوماً أغرّ جميلاً رغم السير المتواصل، وقد كان بجواري أحد الإخوة المغاربة من أساتذة التاريخ، فكان حديثنا عن تاريخ الكوفة وعلمائها وقادة الفتوحات الإسلامية، فكم شهدت من أيام زاهرة، ومجالس علم ومعرفة، ملأت كتب الأدب والتاريخ والتراث إشعاعاً ونوراً وتاريخاً مضيئاً. ورحم الله أسلافنا الميامينَ الذين قادوا فتوحات الجيوش الإسلامية فاتحين.

وهكذا أوحت لنا طبيعة المكان بهذا الإحساس التاريخي، ولم نقطع ذلك الحديث إلا والإخوة الزملاء من مرافقي الرحلة يودعوننا.

وبعد أن أمضينا أياماً ممتعة مفيدة في رُبوع بلاد الرافدين الحافل بالآثار والمعالم العربية الإسلامية، ودّعنا تلك الربوع، متذكراً قول شاعره الرصافي وقصيدته التي أنشدها في حفلة تكريم أمين الريحاني خلال زيارته لبغداد:

أأمين جئت إلى العراق لكي ترى ما فيه من غُرَر العلى وحُجوله

أيام في بلاد الشام
(سوريا - لبنان - الأردن - فلسطين)

قرأت عن الشام كثيراً وما يحفل به من المعالم والآثار، وعن دمشق المدينة التاريخية القديمة، وعاصمة الأمم الغابرة، والجامع الأموي والمكتبة الظاهرية وقصر العظم.

وفي صيف عام ١٣٨٠هـ رأيتها فرصةً سانحةً لزيارة بلاد الشام، وأعني ببلاد الشام، المعنى الواسع والحدود القديمة: سوريا ولبنان والأردن وفلسطين، والتي مرت بأحقابٍ تاريخيةٍ قبل الفتح العربي الإسلامي، فقد حكمها البابليون الآشوريون والفرس والرومان والبطالسة والسلوقيون، حتى امتدت إليها يد العرب مدّة من الزمن، ثم استولى عليها الرومان، ثم استردها العرب المسلمون بعد موقعة اليرموك الشهيرة، ولم تزل موضعَ اهتمامهم حتى صارت تحت الحكم الأموي، وصارت دمشق عاصمة الأمويين في عام ٤١هـ، ثم تعرضت للحكم التركي والفرنسي، ثم عادت عربية تتمتع باستقلالها.

وكانت بداية الرحلة أن نتوجه إلى دمشق الفيحاء من الرياض عن طريق الجو، ووصلنا دمشق بعد أن مكثنا أكثر من ساعتين في الطائرة. وقد كنت خلال تلك الساعتين أرسم خيالات شتى عن بلاد الشام وعن الجامع الأموي، وعن قصورها ومتاحفها ومعارضها ومدنها ومصايفها وروابيها ومساجدها ومعاهدها، وعن ابن تيمية وصلاح الدين وابن القيم، وعصورها الذهبية التي مرت بها والفتوحات الإسلامية، وما كتبه

مؤرخوها، كابن عساكر، وغير ذلك مما قرأته وسمعته مما يملأ النفس إعجاباً.

ولقد كان منظر دمشق من الجو رائعاً، حيث كانت الجبال والوهاد حللاً من الخُضرة والنَضرة مما يدخل على النفس البهجة والغبطة والسرور، وتذكرت قول شوقي:

قم ناجِ جِلَّقَ وانشُدْ رَسمَ من بانوا مشت على الرسم أحداثٌ وأزمانُ

ووصلنا دمشق، واتجهنا إلى بَرَدى في قلب العاصمة، مردداً أبيات حسّانَ بن ثابت التي مطلعها:

لله دَرُّ عصابةٍ نادمتهم يوماً بجِلَّقَ في الزمان الأول

وأعدت إلى الذاكرة أبيات حسان بن نمير:

ويا بَرَدَى لا زال ماؤكَ بارداً وماءُ الحيا من ساحتيك نَمِيرُ

وفيما كنت محتاراً لا أدري إلى أين أذهب وإذا بأحد الإخوة السعوديين ينادي عليّ باسمي، فالتفتُّ نحو مصدر الصوت وإذا به أحدَ الأصدقاء الأفاضل، فسعدت بلقائه، حيث أخبرني بأن له شهراً ونيّفاً هنا، فقلت له: إذن أنت دليل ممتاز، فذهبنا إلى النزهة والاستجمام بين أحيائها، كحي المهاجرين وأبي رمانة وسوق الحميدية وشارع بغداد وحي الربوة، وفي الأيام الأخرى قمت بزيارة آثارها، كالجامع الأموي ودار الآثار وقصر العظم والمكتبة الظاهرية والجامعة والمتحف الوطني.

لقد حرصت على التردد على الجامع الأموي وتأدية فروض الصلاة فيه، والواقع أنه آية من آيات الجمال والفنّ الرفيع، ودليل على ما لأسلافنا من مجد ورقيّ وتقدم ومهارة في التصميم والفن المعماري.

إن جامع بني أمية يحكي تاريخاً عظيماً، حيث كان الخليفة يُصدر أوامره من هذا الجامع، فتأتمر به الدنيا، فقد كان مكانه قديماً معبداً لليونانيين، حتى بناه الوليد بن عبد الملك والذي بلغت الفتوحات الإسلامية في عهده ذروتها، وأتم بناءه عام ٩٧هـ، ويقول المؤرخون: إن بناءه استمر عشر سنوات.

ولهذا الجامع مدخلان رئيسيان، وأرض المسجد كلها مفروشة بالمرمر، ولقد روي عن ياقوت الحموي قوله: إن من عجائب هذا المسجد أنه لو عاش الإنسان مائة سنة وجلس يتأمله كل يوم لرأى فيه ما لم يره في سائر الأيام من حسن الصناعة واختلافها.

وبعد مضي عدة أيام من التَجوال في داخل مدينة دمشق دعانا أحد الإخوة إلى نزهة خارجَ دمشق، فذهبنا إلى كل من عين الفِيجة وبقين وبلودان والزبداني، ومررنا بالكثير من الجداول والأنهار والشلّالات التي تنساب مياهها بين المروج والأشجار، فكان لمنظر المياه وهديرها وتدفقها الأثر الجميل في نفوسنا، حيث أمضينا يوماً ممتعاً وجميلاً، وكنت أردد قول شوقي:

سلامٌ مِن صَبا بَرَدى أرَقُّ ... ودمعٌ لا يُكفكف يا دمشقُ
فتَحتَ جنانكِ الأنهارُ تجري ... ومِلءُ رُباكِ أوراقٌ ووُرْقُ

وقوله:

آمنتُ بالله واستثنيتُ جنّتَه ... دمشق رَوحٌ وجناتٌ وريحان
قال الرِفاق وقد هبّت خمائلها ... الأرض دارٌ لها الفيحاءُ بستان
جرَى وصفَّقَ يلقانا بها بَرَدى ... كما تلَقّاك دون الخُلد رضوان
دخلتُها وحواشيها زُمرُّدةٌ ... والشمس فوق لُجين الماء عِقيان

والحور في دُمَّرٍ أو حول هامتها حورٌ كواشف عن ساقٍ وولدانُ
وربوةُ الواد في جلباب راقصةٍ الساق كاسيةٌ والنحر عُريان
وقد صفا بردى للريح فابتردت لدى ستورٍ حواشيهن أفنان
خلَّفتُ لُبنانَ جناتِ النعيم وما نبِّئتُ أن طريق الخُلد لُبنانُ
حتى انحدرتُ إلى الفيحاء وارفةً فيها الندى وبها طَيٌّ وشيبانُ

إن بردى النهر الجميل تتفرع منه أنهار دمشق ويضفي عليها جمالاً وجلالاً؛ إذ يمر بشوارعها وميادينها حتى يصب في الغوطة، وهي التي يعنيها الشعراء في قصائدهم، ومن ذلك قول الشاعر:

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها فلي بجنوب الغوطتين شُجون
وما ذقت طعم الماء إلا استخفّني إلى بَرَدى والنيِّرين حنينُ

وبعد العودة إلى دمشق كان في انتظارنا في الفندق أحد الإخوة السعوديين المقيمين في دمشق، حيث كنا على موعد معه، وقد حضر لاصطحابنا إلى منزله، فوجدناه قد دعا عدداً كبيراً من أبناء الجالية السعودية، فسعدنا بلقائهم والتعرف عليهم، وقد أكدوا علينا بضرورة الاستجابة لدعواتهم، فاعتذرنا لهم بحجة أن وقتنا قصير، وأننا سوف نغادر دمشق قريباً.

وقمت بزيارة دار الكتب الظاهرية، والمجمع العلمي، وجامعة دمشق، ومعرض دمشق، وغير ذلك من المعالم والآثار.

وفي اليوم التالي ذهبت إلى السفارة السعودية للسلام على بعض الإخوة فيها، وسألت عن بعض العلماء والأدباء فقيل لي: إن أكثرهم موجود في الجامع الأموي، وأفضل وقت للّقاء بهم بعد صلاتي العصر والمغرب. وبالفعل وجدنا مجموعة طيبة من العلماء والمحدثين يلقون

دروسهم وسط مجموعات من طلاب العلم، وخرجنا من الجامع إلى قاسيون؛ لمشاهدة دمشق كلها من عل، حيث كانت غارقة في الخضرة والنور والجمال، وتتأنق بالزينة والجمال في لبنان.

وودعنا دمشق متوجهين إلى لبنان بواسطة السيارات، حيث مررنا بالكثير من المصايف، ولقد أضفى الجمال عليها حُللاً من الخُضرة والنَضرة والزهور، يتمثل حقيقة فيما قاله شعراء العرب في الربيع، كابن الرومي والبحتري وابن خفاجة، فأينما تدير بصرك لا تجد إلا رياضاً وشجراً وزهوراً.

تحيةُ دِمشق الفيحاء

ولعل من المناسب أن أورد قصيدة لي تصف هذه المدينة وتاريخها:

دمشق يا موئل التاريخ والأدب ... ومعقل العلم أزماناً وأزمانا
أتيت من نجدنا شوقاً لعاصمةٍ ... تاريخها ناصعٌ مجداً وفرسانا
على رُباها تهادى الحسن مؤتلقاً ... وعطرها ساحرٌ يُهديك ألحانا
هَمَى بها العزُّ بالأمطار دائمةً ... وعاد صُبحك بالأحلام وسنانا
هي الحضارة تاريخٌ ومنطلقٌ ... تُحدّث الناس أجيالاً وأزمانا
كم شاعرٍ وأديبٍ قال قولتَه ... وكنت في قلبهم نبضاً وشِريانا
بنو أمية تاريخٌ ومفخرةٌ ... إني لأذكر سفياناً ومروانا
أعلامها من رجال العلم منهجهم ... شريعةٌ أينعت هدياً وإيمانا
كم شاد شوقي طويلاً في قصائده ... بما لها من جمالٍ شعَّ فتّانا
دمشقُ يا قلعة التاريخ في شمَمٍ ... وللعلا صُوَرٌ زادتك ألوانا

تحيةً لربوع الشام قاطبةً رُدّي تحيَّتنا فُلاً وريحانا

ولا غروَ إذا تفنن شعراء لبنان في وصف لبنان وجمال ربيعه وحقوله، فالجمال يلهم القرائح الخلاقة شعراً تمتزج النفس فيه بالخيال والحقيقة. وبعد أن وصلنا بيروت توجهنا إلى أحد فنادقها في رأس بيروت، وكان الجوُّ معتدلاً وجميلاً.

وبعد أن استقرّ بنا المقام قمت بجولات في مختلف أحياء بيروت قديمها وحديثها ومتاحفها وآثارها ومساجدها ومكاتبها.

ولقد حفل تاريخ لبنان بذكريات عديدة منذ قديم الزمان، وتصارعت أمم شتى منذ عهد الإغريق والأراميين والفينيقيين والبابليين والآشوريين، فهو عبارة عن تاريخ ضخم، حيث مرت عليه أمم ودول، وحضارات ومدنيات، وعلوم وثقافات، وللبنان تاريخ في عهد الخلافة الأموية والعباسية والدويلات التي تلتها، كما أن موقعه الممتاز أعطاه مركزاً دولياً، كما أن طبيعة أرضه الجبلية وقربه من البحر وكونه في مركز متوسط بين البلدان التي كانت مهداً لمختلف الحضارات كلّ ذلك جعل له دوراً وأثراً في تكوين دوره التاريخي.

ويتميز لبنان بجباله، فهي ركيزته الجغرافية، وعامل حيوي في حياته، ولذا فهو يستهوي ويجذب إليه الكثير من السائحين، كما يمتاز بمغاراته وكهوفه، وأنهاره وجباله، ويقول المتنبي:

وعِقابُ لبنانٍ وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتاءُ؟!

وكثيراً ما تحدث اللبنانيون عن الأُرز، ونظموا القصائد الطوال في ذلك، وقد أصبح من المعالم السياحية في لبنان، وكم قرأنا من أشعار وقصائدَ وكتب حول شجرة الأُرز، وجودة أخشابها وطيب رائحتها. وكانت فرصة طيبة أن نتنزه يوماً بين الأرز، ومشاهدة الثلوج، ومنه ذهبنا

لبشري، وزرنا بيت أديبها الريحاني، وهي تشرف على وادي قاديشيا. والواقع أن شجرة الأرز شجرة جميلة، كما أنها صُلبة، ولا غرو إذا استعمله الأقدمون، وصنعوا منه مراكبهم وسفنهم.

كما قمت برحلات متتالية إلى جباله ومصايفه، والتي تمتاز بالنسيم العليل والمناظر الخلّابة، والمناخ الجميل والمياه الباردة العذبة، ومن أشهر المغارات: مغارةُ جعيتا، وفاديشيا، وهي التي تتفجر منها المياه.

ومن أشهر المصايف:

عالية، بحمدون، صوفر، حمانا، ظهور الشوير، سوق الغرب، برمانا، زحلة، خلده، فالوغا، بكفيا، كيفون، نبع الصفا، نبع الباروك، شتورة، إلى غير ذلك من القرى والمصايف المنتشرة على سفوح الجبال، قد حباها الله بالخضرة والنضرة والجمال.

ولقد أمضيت يوماً كاملاً على ضفاف نهر البردوني في رحلة ممتعة والذي جلس فيه أمير الشعراء شوقي حيث قال في قصيدة طويلة:

يا جارة الوادي طربت وعادني ... ما يُشبه الأحلامَ من ذكراك

إلى أن قال:

مرآكِ مرآه وعينكِ عينُه ... لم يا زحيلة لا يكون أباك

وذهبنا إلى عاصمة الشمال طرابلس ذات التاريخ المديد، حيث كانت عاصمة لأمم كثيرة، وقد كانت تشتهر بوجود المكتبات العلمية فيها، وحينما كانت عاصمة لبني عمار كان بها مكتبة تحتوي على مائة ألف مجلد، حيث كان ابن عمار حريصاً على جمع الكتب وتوفيرها، ولكن الأفرنج خربوها، ثم جاءها الفاطميون وغيرهم، وهي الآن المدينة الثانية في لبنان، وبها نشاط اقتصادي وازدهار صناعي، وحركة تجارية واسعة.

ومن الشمال قصدنا الجنوب صور وصيدا وجبيل، وغيرها من المدن والقرى، وهي بلدان ذات شهرة تاريخية، وبها قلاع تاريخية قديمة، وآثار تحكي تاريخ الأمم الغابرة.

أما بعلبك فقد أمضينا في ربوعها وبين قلعتها يوماً، تجولنا فيه بين آثارها التي تمثل المعابد الرومانية القديمة ذاتَ التصميم القوي والإبداع الهندسي. وحينما كنت أتجول في أسواقها تذكرت القائد البطل المسلم صلاح الدين الأيوبي، فقد تربّى فيها، حيث كان والده عليها والياً، كما أنها أنجبت العديد من الشعراء والأدباء والعلماء.

إن لبنان بلد تجارة وسياحة، وهما أسباب ازدهاره وغناه، وليس فيه مواردُ طبيعية غنية، ولكن السياحة والموقع الاستراتيجي ومهارةَ أهله في ممارسة أساليب الخدمات العامة جعلته يصل إلى هذا المستوى.

زرت الكثير من المكتبات في لبنان، والتقيت بمجموعة طيبة من الشعراء والأدباء ممن لهم نشاط ومشاركات علمية وأدبية، وكنت حريصاً على أن تتاح لي الفرصة للّقاء مع كبار الأدباء والمفكرين ممن نقرأ نتاجهم ونسمع بأسمائهم اللامعة في الحياة الفكرية ونتابع إنتاجهم، وأبديت رغبتي لأحد أصحاب المكتبات فأبدى استعداده، حيث إن له صلات عديدة وصداقات وطيدة بحكم اشتغاله في نشر الكتب. ولقد حرصت على أن يكون لقائي بمن لهم اهتمام بالأدب العربي وخدمة التراث والثقافة الإسلامية، ولقد وجدت منهم كلّ رحابة صدر وتواضع، حيث جرى الحديث عن الأدب والشعر والتراث، والتجديد قديماً وحديثاً، واندفاع الكثير من الأدباء والشعراء مع تيار الحياة المادية، ورواج الصحف والمجلات والكتب التي تبعد عن واقع الأدب والثقافة الموضوعية الجادة. ولقد سمعت ما أثلج صدري وملأ نفسي تطلُّعاً من أن هناك حرصاً واهتماماً بالأدب ورفع مستواه.

ويوجد في بيروت متحف أثري ومكتبة عامة سعدت بزيارتها.

الصحافة في لبنان:

يشتهر لبنان بكثرة صحفه ومجلاته مما يسترعي الانتباه، وقليلٌ هي الصحف الجادة الملتزمة، ومع هذا فهناك مجلات علمية وأدبية وفكرية وتربوية، ويمارس الكتابة فيها كتاب مبرزون وأدباء مجيدون، ممن لهم قدم راسخة في ميدان العلم والأدب، ونأمُل أن تتمكن هذه المجلات وغيرها في العالم العربي من الارتفاع بمستوى الأدب والمعرفة ليبلغ أوجَ الإبداع والعطاء والخلود.

أيام في الأردن

توجهتُ مع أحد الأصدقاء إلى عمّان، حيث ذهبنا في الصباح إلى مطار بيروت للسفر إلى الأردن على متن إحدى طائرات الخطوط الجوية اللبنانية، وكانت إجراءات الركوب والسفر في غاية من اليسر والسهولة، وركبنا طائرة البوينج، وكان عدد ركاب الطائرة أقل من نصف مقاعدها، وقد قدموا لنا طعام إفطار في الطائرة، وكنت طَوال الرحلة في حديث مع أحد الركاب الأردنيين، وهو من رجال التربية والتعليم، حيث تجاذبنا الحديث عن الأساليب التربوية الحديثة والتطورات المعاصرة في حقل التعليم حتى نزلنا في مطار عمّان.

وبعد أن أنهينا الإجراءات المعتادة ركبنا سيارة أُجرة من المطار إلى أحد فنادق عمان، وكان قائد السيارة على جانب من دماثة الخلق، فأخذ يشرح لنا كل ما نمر به من الأماكن والميادين وغيرها. ولما وصلنا الفندق وجدناه في غاية النظافة، فشكرنا للسائق خلُقه الكريم.

وبعد الاستراحة في الفندق خرجت في جولة حول الفندق، وتناول طعام الغداء في أحد المطاعم القريبة، ثم فوجئت بنزول وابل من المطر، وكانت السحب الكثيفة تُجلِّل السماء والبرق يلمع والرعد يكاد يصمّ الآذان؛ فعدنا إلى فندقنا مسرعين، ولم نتمكن من الخروج، فبقينا نتردد بين الغرفة وقاعة الفندق، نطالع الصحف والمجلات، ونتناول الشاي والقهوة.

في فلسطين والصلاة في المسجد الأقصى

وبعد أن أمضينا أياماً في عمَّان زرنا خلالها الكثير من المعالم والآثار والمكتبات ودُور العلم والمعرفة توجهنا صوبَ القُدس، وكان ذلك في عام ١٣٨٠هـ لأداء صلاة الجمعة في المسجد الأقصى ثالث المساجد، وقد مررنا بالعديد من القرى والبلدان الفلسطينية، ولما وصلنا القدس ووجهنا إلى المسجد الأقصى أولى القبلتين، والمسجد الذي يشد إليه المسلمون رحالهم من جميع بقاع الأرض، وقد أسرى الله بنبيه محمدٍ ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومنه إلى السماء. ومشينا على أقدامنا في وسط طرقات مدينة القدس القديمة، ولما اجتزنا سوق المدينة وصلنا المسجد، ولقد امتلأت نفسي روعة وجلالاً وعبرة وتأملاً، وكانت الأبواب مليئة بالناس من رجال ونساء وأطفال، قدموا من مختلف المدن والقرى المجاورة، فكان الزحام شديداً في المسجد الأقصى وقبة الصخرة. ودلفنا إلى المسجد، وأدينا صلاة الجمعة مع الجموع الكبيرة التي امتلأت بها ساحة المسجد، فكان مشهداً عظيماً رائعاً.

وبعد الصلاة وقفت أنظر إلى هذه الوجوه الخاشعة في مختلف أرجاء المسجد، ثم قمت متجولاً أجيل الطرف في أرجائه، وأشاهد قبته وأبنيته المحيطة به، كما شاهدت من خلال نوافذه مدينة القدس الجديدة كما يسمونها، والألم يعصر القلب، ثم أخذت أتنقل بين جنَبات الحرم، واتجهت إلى الصخرة وكانت مليئة بالناس، وقد وصفها المؤرخ المقدسي بقوله: "لم أر في الإسلام ولا سمعت أن في الشرق مثل هذه القبة".

ولقد شاهدت قبة بجوارها تسمى "قبة المعراج"، ونزلنا إلى المكان المحيط بصحن القبة، ثم خرجنا لمشاهدة أسوار المسجد من الداخل والخارج، وهي مجموعة أربطة لطلاب العلم والمدرسين في المسجد، وبجوارها متحف بداخله بعض الآثار، ولما انتهى بنا التَجوال مع مختلف الآثار عدنا إلى المسجد لأداء صلاة العصر، فلما انتهت الصلاة قمت لمشاهدة المنبر، ومشاهدة ما يمتاز به من جمال الشكل، ومتأملاً ما مر عليه من أمم وقرون وحوادث وعصور متعاقبة، ولقد قال ياقوت في وصفه: "وأما الأقصى فهو في طرفها الشرقي، أساسُه من عمل داودَ عليه السلام، وهو طويل عريض، وطوله أكثر من عرضه، وهو على غاية الحسن والإحكام، وطوله ألفُ ذراع، وعرضه سبعمائة، وفي سقفه من الخشب أربعة آلاف خشبة، وسبعمائة عمود رخام، وله ستة وعشرون باباً...

وما أكثر ما كتب المؤرخون عن هذا المسجد، ووصفه الرحالة في كتبهم.

ولبثت في القدس يوماً وليلة زرت خلالها الكثير من المعالم والآثار والأبنية التي شادها صلاح الدين وخلفاؤه، وذهب بنا الدليل الذي كان يرشدنا إلى كنيسة القيامة، وهي كنيسة أثرية قديمة، وسمعنا من المرشد أقوالاً شتى عن تاريخها وعن المسيح، وفي زاوية منها مكان يسمونه "المذبح".

وتركنا القدس حيث غدونا إلى البحر الميت، وماؤه مِلح جداً، وبقينا على شاطئه بضع ساعات نتأمل أرض فلسطين وتاريخها الحافل المجيد وذكرياتها التاريخية، وما مر بها من جيوش وأمم وحروب ما زالت باقية في صفحات التاريخ والذكريات، أعاد الله فلسطين عربية مسلمة.

وذهبنا بعد ذلك إلى نابلس ورام الله والبيرة والخليل، وغيرها من المدن الفلسطينية، واخترنا رام الله للاستقرار والمبيت فيها، حيث بلغ منا التعب مبلغه، وهي مدينة جميلة وهادئة وباردة، وقد ذهبنا وتناولنا طعام العشاء في أحد مطاعمها، ثم غدونا نسير في طرقها وشوارعها، حتى أدركنا التعب فعدنا إلى الفندق.

وفي الصباح قمت بزيارة المدن والقرى الفلسطينية، ثم ودعنا تلك الربوع الجميلة إلى عمّان، ومنها إلى دمشقَ، فحلب، بلدِ سيف الدولة الحمداني، والتي يقول الشاعر فيها:

كلما رحّبتْ بنا الروضُ قلنا حلَبٌ قصدُنا وأنت السبيلُ

وفي حلب شاهدنا معالم كثيرة، كقلعة حلب التي تقع على ربوة عالية، ويحيط بها خندق كان يملأ بالماء قديماً، كما توجد بها نقوش وكتابات ترجع إلى العهود القديمة، كما يوجد في القلعة سرداب مظلم، قال المرشد: إنه كان سجناً، وفيها مسجد، إلى غير ذلك من المشاهد، كالجامع الكبير، والمكتبة الوطنية التي تحوي نفائس الكتب.

وفي اليوم الثاني قمنا برحلات إلى كل من حمص، وهي مدينة زراعية، ولها تاريخ مجيد، وبها دفن خالد بن الوليد وابنه عبد الرحمن، وعلى نهر العاصي بقينا فترة من الوقت، وشاهدنا الماء يتدفق من طواحينها، ويقول الشاعر:

ومن حسنها في روضة سُندسية تعلق في أطراف أذيالها العاصي

ثم قصدنا حماة ومعرة النعمان، والتي يرقد فيها شيخ المعرة، ثم عدنا إلى دمشق الفيحاء، والتي يقول شوقي فيها:

لولا دمشق لما كانت طليطلةٌ ولا زهت ببني العباس بغدانُ

وكما قال الشاعر:

سقى الله ما تحوي دمشقُ وحيّاها فما أطيبَ اللذات فيها وأهناها
نزلنا بها واستوقفتنا محاسنٌ يحنُّ إليها كل قلبٍ ويهواها

ومنها غادرنا بلاد الشام ونفوسنا مفعمة بتلك المشاهد، وأفكارنا مليئة بالذكريات. مردداً قول الشاعر:

سقى اللهُ أرضَ الغوطتين وأهلَها فلي بجنوب الغوطتين شُجونُ

في أرض الكنانة

كانت أولى زياراتي لمصر سنة ١٣٧٨هـ وكانت تلك الزيارة برفقة إخوة أعزاء من أبناء الوطن، وبعد رحلة من الرياض دامت ساعتين وصلنا القاهرة والتي وصفها عبد الرحمن بن خلدون بأنها مدينة المدن.

وحينما استقر بي المقام في رحابها كانت ذاكرتي تمتلئ بالانطباعات الجمة عن تاريخ مصر ومعالمها وآثارها ومتاحفها وعلمائها وأدبائها ونيلها وأهراماتها وحضارتها وما كان لها من ماض حضاري عريق مقترناً بحضارات قديمة في ميادين العلوم والآداب.

والزائر للقاهرة تقع عيناه على أشياء كثيرة ومناظر متعددة ومعالم مختلفة ومن أراد التعمق والدراسة فسيجد بغيته في متحف الآثار المصرية وما يحفل به من آثار تمتلئ بها خزائنه. وكذا دارُ الآثار العربية وما تحويه من دقيق النقش والوشي والزخارف ودار الكتب المصرية وقلعة صلاح الدين وخان الخليلي والأزهر.

كان اسم القاهرة "الفسطاط"، وقد أسسها عمرو بن العاص عام ٢٠هـ حيث أقام بها جامعه العتيق الذي كان ميداناً لحلقات العلم والدراسة والوعظ والإرشاد، وكم أسهب المؤرخون في وصف مدينة الفسطاط وشوارعها ومنازلها وحماماتها ونيلها الذي يسحر من رآه وينسيه الهموم كما يقولون.

لقد وصف عمرو بن العاص مصر بأنها تربة غبراء وشجرة خضراء يخط وسْطَها نهر ميمون الغدوات مبارَك الروحات يجري بالزيادة والنقصان.

إن القاهرة اليوم مدينة كبيرة واسعة الأرجاء ممتدة الأطراف ونمت نمواً سريعاً، ولقد حرصت على زيارة معالمها وآثارها فقمت بزيارة الجامع الأزهر ولقد كان هذا الجامع من أوائل الأعمال التي أقامها الفاطميون في مصر، وزاد في بنائه كثير من الخلفاء وما يزال يحتفظ بنقوش وكتابات.

لقد أسهم الأزهر إسهاماً فعالاً في الحفاظ على اللغة العربية والثقافة الإسلامية وصيانة الدين الحنيف ونال شهرة واسعة ومركزاً مرموقاً في العالم العربي والإسلامي، وخرجت من الجامع لزيارة الجامعة الأزهرية حيث التقيت بعدد من الأساتذة والعلماء ممن تربطني بهم صلة العلم، فقد التقيت خلال تَجوالي بين الكلّيات بمجموعة من أساتذتي أولئك العلماء الأفاضل، وبعد أن جلست بين قاعاته وكلياته خرجت لزيارة القلعة التي اختارها البطل صلاح الدين لتكون مقراً له وسكناً وامتد الحُكام من بعده حتى عصرِ الخديوي إسماعيل حينما نقل مقر الحكم إلى مقر عابدين، ولقد طرأت على مباني القلعة تغييرات وإضافات، وبعد ذلك قمت بزيارة لأحياء القاهرة القديمة التي تحتفظ بطابعها التقليدي وما زال أكثرها يحتفظ باسمه القديم، وصعدت للقلعة التي كان قد أمر ببنائها السلطان صلاح الدين الأيوبي على منحدَرات المقطّم.

وخلال إقامتي بالقاهرة قمت بزيارات لكل من دار الكتب ودار الآثار العربية والأحياء التاريخية القديمة والمتحف المصري وجامعة الدول العربية، والأهرام، وحديقة الحيوانات وقصر محمد علي والمتحف الإسلامي، والمتحف الحربي بالقلعة، وجامعة القاهرة ومكتبتها ومجمع اللغة العربية ويضم بين جنباته مجموعة من أعلام اللغة العربية والأدباء البارزين، ويحرص المجمع على تنقية اللغة العربية ونشر

ذخائرها، ووضع معاجم لغوية.. ومن اللافت للنظر كثرة المكتبات المنبثة في أحياء القاهرة إلى جانب المجلات الثقافية المتخصصة في مختلف مجالات الآداب والفنون، ويحظى الكتاب بأهمية المؤسسات الثقافية ودور النشر ولذا فهي تقدم مئات الكتب ذات المستويات المختلفة التي تشد حاجات المتخصصين القراء العاديين في شتى نواحي الفكر والثقافة والعلوم.

وقمت بجولة في أحياء القاهرة وأسواقها الشهيرة بالتحف ذات التشكيلات والفن المتألق من حفر على الخشب والعاج والعظم وغير ذلك من الصناعات الدقيقة المتنوعة، ولعل من أبرز ملامح وجه القاهرة برجها العالمي وقبابها ومآذنها ومبنى تلفازها ونيلها الجاري الجميل الذي عاشت على ضفافه أمم وحضارات.

والقاهرة تجمع بين القديم والحديث والذكريات التاريخية والآثار العريقة فالزائر لها سيشاهد كل يوم أشياء قديمة وحديثة وسيجد نفسه في حاجة إلى الوقت ليرى ويستطلع ويقرأ ويشاهد أماكنها ومعالمها التاريخية والأدبية، وما أكثر العلماء والأدباء والمؤرخين الذين أثروا المكتبة العربية بما دونوه وكتبوه عنها وعن نهرها الخالد الذي يجري طويلاً وتنساب مياهه في أرض مصر، ويعتبر من أكبر الأنهار التي تجري في القارة الإفريقية وتعتمد عليه مصر في تحقيق الكثير من الموارد الزراعية والاقتصادية، ومن القاهرة ذهبنا لزيارة الإسكندرية الثغر الجميل، والتي أسسها الإسكندر الأكبر قديماً، وهي ذات تاريخ عريق حيث عاصرت التاريخ قروناً طويلة، وبعد زيارة لأهم معالمها السياحية وإمتاع الذهن والعين بما تحويه من المناظر الرائعة والشاطئ الجميل والمكتبات الغنية بالكتب القديمة والحديثة والمعاجم الموسوعية واصلت الرحلة إلى

الإسكندرية والسويس وبور سعيد حيث شاهدنا السفن تمر قادمة من أمريكا والشرق الأقصى، ثم واصلت الرحلة إلى الأقصر وأسوان حيث الآثار التاريخية، وقمت بجولة في ضفتَي النيل الغربية والشرقية استغرقتْ يوماً كاملاً لزيارة العديد من المعالم الشهيرة مثل الكرنك والأقصر ووادي الملوك وجزيرة التمساح، وغير ذلك من المكتبات والمعالم والمتاحف والأسواق والسد العالي في أسوان وآثار بلدة إدفو وجزيرة الفيلة، وكان ذلك خلال جولة استغرقت بضعة أيام اشتملت على رحلة نهرية وزيارة الحدائق النباتية والأزهار من كل جنس ونوع، وغير ذلك من روائع الآثار والتاريخ في الأقصر وأسوان، وستبقى تلك المناظر والآثار في الذاكرة فترة طويلة حيث تنطوي على الكثير من الجمال والأصالة والتاريخ العريق. وهكذا كما قيل:

كم سجل التاريخ عن أمجادها ... صوراً يتيه بها الخلود ويَطرَب
جعل الكنانة قلعةً أركانُها ... تُخشى من الباغي الحقود وتُرهبُ

وقيل:

فنهر النيل يسحر من رآه ... وينسيه الهموم القاتلاتِ
على جنباته سفنٌ تَهادى ... تراها غادياتٍ رائحاتِ

في مجمع اللغة العربية وخدمة الفصحى

عندما حللتُ في مدينة القاهرة بتاريخ ١٥/ ٧/ ١٤١٤هـ لحضور حفل جائزة الإبداع الشعري، وتوزيع جوائزها على الفائزين بها، والمشاركة في ندوة محمود سامي البارودي، والتي شهدها عدد من الكتاب ولفيف من الأدباء، ونخبة من المثقفين العرب من خلال دراسات تناولت مختلف جوانب إبداعه شعراً ونقداً، والتي أعطته مكانته الرفيعة في دنيا الشعر من قبل مجموعة من الباحثين والنقاد في الوطن العربي، وقد كان حفل الجائزة، وندوة الشاعر محمود سامي البارودي مهرجاناً حافلاً ضم أدباء ونقاداً من جميع أقطار العالم العربي في لحظة تاريخية فكرية.

ولعل أجمل ما تتيحه مثل هذه الندوات ليس فقط الحواراتِ حول موائد البحث المستديرة، بل الأحاديث الجانبية والتعارف بين الأدباء، وقد كان هذا الشعور يطرح في هذه الأحاديث الجانبية للتعرف على حركة الشعر والأدب، وتشجيع التواصل بين الشعراء والأدباء والمهتمين بالشعر العربي قديمه وحديثه، وتوثيق الروابط بينهم، كما يجري تناول موضوع القصيدة من عدة جوانب في حوار بناء وطرح موضوعي.

وعندما انتهى ذلك الحفل، وتلك الندوة رأيت الاستفادة من وقتي في زيارة "مجمع اللغة العربية في القاهرة" أحد القلاع الحصينة للدفاع عن اللغة العربية بحي الزمالك، ومقابلة أمينه العام، والأخوة العاملين في الأمانة العامة والمكتبة، والذين غمروني بمشاعرهم الطيبة، ومنحوني جزءاً من وقتهم للتعرف على هذا الصرح اللغوي العتيد والتجول في

قاعاته ومكاتبه فكان لقاء ممتعاً ومفيداً، حيث اطلعت على الجهود المخلصة التي يبذلها المجمع، وعلى البحوث والدراسات التي تستهدف النهوض باللغة العربية، والانطلاق بها إلى آفاق الحياة الواسعة في كل المجالات، ولقد قال الأمين العام للمجمع الدكتور/ إبراهيم مدكور: إن المجمع يؤمن بأن اللغة العربية يجب أن تتطور تطوراً يساير حركة الانبعاث، اللغة كائن حي ينمو ويتطور شأن كل كائن في الوجود، وأن اللغة العربية شأنها في هذا شأن أي لغة أخرى تنمو وتتطور، فقلت: إن الأمل كبير في المجمع، وفي عمله، ونشاطه، وإنتاجه، وما رأيت من الكتب والبحوث والدراسات المستفيضة، والعمل في إطار لا يخرج باللغة عن أوضاعها الجوهرية السليمة، ليجعلني أزداد فخراً وإعجاباً وتفاؤلاً بدور المجمع في خدمة اللغة، وجهوده المتصلة في وضع المصطلحات العلمية في شتى العلوم والفنون، وقلت: إن أبناء الأمة العربية والباحثين والغُيُر على اللغة العربية يتابعون نشاط المجمع، ويستجيبون بوجه عام لقرارات المجمع، ويأخذون بمقرراته، والكثيرون من رجال اللغة أخذوا عنه، وأفادوا منه، ونأمل نشر المصطلحات العلمية التي يقرها المجمع في مختلف العلوم والفنون، وإن نشر بحوث المجمع وقراراته وإذاعتها بين الناس فيها فائدة لكي يقفوا عليها للاستفادة منها.

وبعد طرح مجموعة من الأسئلة حول المجمع ودوره في خدمة اللغة العربية وتوحيد المصطلح العلمي وتيسير النحو التعليمي وتحقيق الازدهار للفصحى وخلافه وإجراء حوار خِصب ومناقشة دسِمة حول أهمية الفصحى وإنجازات المجمع وما أخرجه من معجمات، منها: كتاب "الجيم للشيباني"، وكتاب "الأدب" للفارابي، و"التكملة والذيل"

للصاغاني، وعدا ذلك من الكتب: كالمعجم التاريخي، والمعجم الحديث، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم، والمعجم الوسيط، وغيرها من المعاجم العلمية المتخصصة، إلى جانب كتب ومراجع متخصصة في أصول اللغة والألفاظ والأساليب، فضلاً عن مطبوعات خاصة ومجلة دورية ومكتبة غنية بالكتب والمراجع وحافلة بالمطبوعات النفيسة في اللغة وفي جميع فروع المعرفة، وجهود المجمع في الوقوف في وجه دعاة العامية، وحماية اللغة العربية، وتقرير دورها واستخدامها في وسائل الإعلام، وتقرير دور المجمع في سرعة نشر المصطلح العلمي والحضاري، ونشر البحوث والدراسات، وتوسيع نطاق توزيع مجلته، وإخراجها على النحو الذي ينشده الجميع، والعمل على إحياء التراث، وتحقيق كتبه وتوطيد العلاقة الثقافية مع المؤسسات، والهيئات العلمية المختلفة في أرجاء الوطن العربي، خرجت وكلي أمل وتفاؤل بالمستقبل، وتحقيقِ طموح المخلصين والمحبين للغة العربية ورفعتها وعلو شأنها، والتي هي أمنية لكل عربي من مشرق الوطن العربي إلى مغربه، فهذا المجمع وغيره من المجامع قنوات واسعة للمعارف والعلوم والآداب، وروافد ثرّة لبلوغ الغايات المرجوة بتوفيق الله،ولقد أوحت لي زيارة المجمع معقل اللغة العربية بهذه القصيدة، وهي اعتزاز بهذا الصرح اللغوي العظيم الذي يواصل رسالته الجليلة في الحفاظ على اللغة العربية، وتراثها الخالد، وهي:

مجمعَ الخالدين مني سلامٌ ... دمت ذخراً وقوةً ومقاما
موئل الضاد قد أضأت سراجاً ... وأشعت البيان نوراً تماما
قلعة الفكر والبلاغة مهداً ... قد رعيت العلوم والأفهاما
شدت للضاد منبراً ومكاناً ... وصروحاً تبدّد الأوهاما

نخبةٌ هاهنا تروم علواً ... واهتماماً وغيرةً واعتزاما
خدموا الضاد والمعارف طُراً ... وأناروا البيان والأعلاما
طبت داراً رفيعة ومكاناً ... يا عظيماً يطاول الأهراما
أنت فخرٌ ومجمعٌ لرجالٍ ... رفعوا الضاد عزةً وسناما
وفق الله سعيكم وجزاكم ... كل خيرٍ وزادكم إلهاما

أيام في السودان

بصحبة معالي الرحّالة الشيخ محمد العبودي كنت ممثلاً لوزارة المعارف في زيارة السودان وكان مما زاد في إضفاء رداء السعادة في نفسي في تلك الرحلة أني كنت في صحبة الشيخ محمد وإخوة أعزاء.

وفي صباح يوم الأحد الموافق ٢٠/ ٤/ ١٣٩٥هـ حطت الطائرة في مطار الخرطوم بعد رحلة استغرقت ساعة من جدة، ولقد حرَمَنا الطيرانُ في الليل من الاستمتاع بجمال البحر الأحمر ومشاهدة موانئه، وبعد استراحة من عناء السفر والسير حيث أصيبت الطائرة بعطب أخَّر سفرها خمس ساعات..

توجهنا صوب العاصمة التي كانت في منتهى الهدوء إذ لم تستيقظ بعد واخترقنا شوارع العاصمة ذات الأشجار الكثيفة حتى وصلنا إلى فندق السودان.. ولعل مما يلفت النظر أن أغلب البيوت من طابق واحد مما أضفى على المدينة انفتاحاً واتساعاً وصفاء بعكس أغلب مدن اليوم الكبرى التي تعددت فيها ناطحات السحاب فحجبت الرؤية وتلوث جوها بالهواء الفاسد، وبعد استراحة في الفندق ودعنا مرافقنا المكلَّف من قبل وزارة التربية والتعليم باستقبالنا ومرافقتنا بعد أن ناولنا برنامج الزيارة وكان حافلاً بزيارة مختلف المؤسسات التعليمية والثقافية، كما تجولنا في مناطق متعددة وزرنا مجموعة من المدارس وجامعة الخرطوم والجامعة الإسلامية في أم درمان والمعهد الديني والمركز الإسلامي الإفريقي ومعهد تعليم اللغة العربية وبعض المكتبات، كما قمنا بجولة على المدن والقرى المجاورة للعاصمة.. بعد زيارة الخرطوم وأم درمان والوقوف على

ضفة النيل ومشاهدة مياهه، وكم يغري المرء السير في شارع النيل والتمتع بمنظر المياه التي أضفت على المكان روعة وجمالاً وقد غرست الأشجار على جانبيه.

على مائدة السفارة:

كرُم سعادة السفير السعودي عرب هاشم فدعانا إلى حفلة دعا إليها عدداً من العلماء والأدباء والمشايخ في السودان بالإضافة إلى أعضاء السفارة السعودية والمكتب الثقافي، وكانت فرصة طيبة تبادلنا خلالها الأحاديث، والمعلومات عن السودان قديماً وحديثاً.

رحلة على ضفاف النيل:

قامت وزارة التربية والتعليم هناك مشكورة بتنظيم رحلة نيلية جميلة ومشاهدة النيلين حيث يلتقي النيل الأزرق بالنيل الأبيض ويختلطان في روعة بالغة. وكان الجو ربيعاً جميلاً، ولقد شاهدنا ونحن على ظهر المركب العاصمة السودانية المثلثة وهي تتكون من أم درمان والخرطوم والخرطوم بحري، ومدينة الخرطوم مدينة حديثة جميلة التخطيط بديعة التنسيق، ولقد أضفت الجسور المقامة على جوانبها روعة وجمالاً.. وهذه الجسور جعلت من المدن الثلاث حيث يلتقي أطراف بعضها ببعض كأنها مدينة واحدة.. ورغبة في تزجية الوقت كان الحديث عن هذه الثروة المائية الهائلة وعن الزراعة والماشية وامتداد الإسلام في القارة الإفريقية وما يملكه السودان من ثروة زراعية وحيوانية هائلة.

ولقد بقينا على ظهر المركب أكثر من أربع ساعات رغم سيره السريع.. ولقد راعتنا عظمة النيل واتساعه وضخامته وما يفيض به من مياه هائلة، ولقد لفت نظري وأنا أرنو ببصري يميناً ويساراً على جوانب النيل قلة المزارع والبساتين على ضفاف النيل المتدفق بالمياه الغزيرة وسألت

الإخوة السودانيين الذين كانوا معنا في هذه الرحلة النيلية قائلاً: علام الأرضُ عارية من الخضرة بينما الماء كما نرى غزارة وعذوبة وامتداداً..؟ فقال محدثي: إن ذلك يعود إلى قلة الإمكانات إذ أن المال والخبرة مهمان في عملية الاستثمار. وقال آخر: إن السودان يحوي أراضي خصبة لو استثمرت لكفت العالم العربي غذاء. فقلت: حمداً لله وشكراً الذي رزقنا هذه الموارد الطبيعية الهائلة.

وبعد أربع ساعات أمضيناها على ظهر المركب وصلنا إلى جبل الأولياء وهو على شكل هضبة مرتفعة حيث توجد به خزانات المياه وتوجهنا إلى جامع البلدة لتأدية صلاة الجمعة.. ولقد غُمرنا ممن وجدناهم بالسلام والتحية وكانت الكلمات تخرج من شفاههم مليئة بالحب والمودة.

ويمتاز هذا الجبل بوجود الأشجار والظل الوارف واصطياد الأسماك فهو من متنزهات العاصمة حيث يقضي الناس فيه عطلتهم الأسبوعية..

ولقد لاحظت خلال التجوال على شاطئ النيل وجود عدد من الصيادين في زوارقهم يبيعون الأسماك الطازجة بأسعار زهيدة.

وبعد أن أمضينا وقتاً بين قمة هذا الجبل وخزانات المياه وساحل النيل قفلنا راجعين إلى العاصمة.

ولكم يوحي النيل بالجمال فكم تغنى به الشعراء وأبدعوا في وصفه حيث ترك الشعراء قديماً وحديثاً تراثاً غزيراً من الشعر حول ذلك، ولكم تفنن شعراء مصر والسودان في وصف النيل فجاءت أشعارهم مفعمة بالرقة والعذوبة ومليئة بالجمال والجلال في وصف النيل ومرابعه ومباهجه.

لقد كان منظر النيل فاتناً أوحى إليّ باستعراض شريط من ذكريات المؤرخين والرحالة والشعراء، وما أثار فيهم من عاطفة وإحساسات جمالية، ولقد طوى الزمن تلك الذكريات في جوف أمواجه.

حقيقةً إن منظر النيل ليولّد في النفس إحساساً عميقاً بالجمال كما أن هذا الإحساس يطلق العنان لخيالات الشعراء والأدباء والفنانين، ففي هذه الربوع السودانية الجميلة الثرية بنهر النيل والتربة الخصبة إمكانات واعدة لتحقيق تنمية مليئة بالرخاء والازدهار. حقق الله الآمال مردداً قول أبي الطيب وأنا المحب لشعره:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

في تونس

زرت بلدان المغرب العربي عدداً من المرات وتجولت فيها كثيراً.

وفي صباح يوم الجمعة الموافق ١٠/ ١/ ١٤٠٠هـ، غادرت مطار الرياض متوجهاً إلى تونس البلد العربي الإسلامي الشقيق، وهبطنا في مطاري جدة وطرابلس، وواصلنا السفر بعد ذلك إلى تونس، وكنت أشاهد من الجو الشواطئ الجميلة المترامية والمزارع الواسعة والمراعي الخضراء والغابات الكثيفة، ولا شك أن موقعها وسطَ حوض البحر الأبيض المتوسط أضفى عليها ذلك الجمال والمناخ الطيب والثروات الطبيعية والأثرية، فكم نشأت على شواطئ هذا البحر من مدنيات وحضارات وماض زاخر بالعطاء والإبداع ، فقد استوطنها الفينيقيون والرومان قبل الفتوحات الإسلامية.

ولقد كان بجواري في المقعد أحد الإخوان التونسيين فسألته عن تونس وعن جامع الزيتونة وجامع عقبة وغيرها من الأماكن الأثرية القديمة التي ارتفع عليها صرح اللغة العربية والثقافة الإسلامية في تونس فاسترسلنا في الحديث مردداً قول الشاعر العربي:

هات الحديث فإنني أصبو إلى ... أنباء تونس من صميم القلب جدا

وقول القائل:

دريت حقاً وما أدراك أنيَ مِن ... حَرّ اشتياقي إلى الخضراء في ضجَر

هناك ما شئت من علمٍ ومن أدبٍ ... ومن حدائقَ تؤتي أطيب الثمر

فلقد استمر هذان الجامعان يخرجان للناس أكابر العلماء والفقهاء والمؤلفين كالإمام سحنون واللخمي المازري وغيرهم، وأخذت مع محدثي نتجاذب أطراف الحديث في التاريخ والأدب حتى قطع علينا الحديث صوت مضيف الطائرة منبئاً بالاستعداد للهبوط، وشاهدت المدينة من علٍّ غارقة في الخضرة، وترصّعها البيوت البيضاء المختلفة الأحجام والأشكال إلى جانب منظر البحر ثم هبطنا في مطار قرطاج.

وبعد الانتهاء من إجراءات المطار المعتادة توجهت صوبَ فندق البُحيرة، وبعد الاستراحة وتأدية صلاتي الظهر والعصر جمعاً، خرجت من الفندق أتجول في شوارع المدينة ووصلت في سيري إلى شوارعها الرئيسية كشارع الحبيب بورقيبة وشارع محمد الخامس وشارع الحرية، وكان في جيبي خريطة المدينة وكانت كبيرة ومصورة مما سهّل لي الانتقال والوصول إلى بعض الأماكن والميادين، وكان الطقس لطيفاً يغري بالنزهة، ولكنه في اليوم الثاني غائمٌ ومنذرٌ بالمطر والبرد، وحينما كنت أتجول في المدينة أعجبتني متاجرها ومعروضاتها الحسنة التنسيقِ وشوارعها الفسيحة وعماراتها الشاهقة المتألقة بهندستها العربية الأندلسية ومقاهيها المتناثرة على الأرصفة، ومضيت متجولاً في المدينة حتى وصلت إلى المدينة القديمة فسألت عن جامع الزيتونة ومشيت وسط دروب وبيوت قديمة تحكي الماضي فذكرت قول الشاعر:

عيني ترى الماضي فتبكي له ... ياليت ماضينا هو الحاضرُ

وفي الطريق إلى الجامع توجد المتاجر التي تعُجّ بمختلف أنواع البضائع والتُحف والصناعات الأندلسية والتونسية، إلى جانب المكتبات التي تحفل بكتب التراث والثقافة المعاصرة، إلى جانب البيوت الصغيرة المتراصة وسط دروب ضيقة، وكلها مطلية بالدهان الأبيض فهي ناصعة

من الخارج، ووسط هذه الأسواق الشعبية يتضوّع عبق البخور والصندل في أزقتها الضيقة، وتزينها الألوان الزاهية، وجامع الزيتونة أهم معلم ديني في تونس.

ووصلت الجامع وله ستة أبواب وبه ثلاثمائة وسبعة وخمسون عموداً، ولكَم قرأت عنه وسمعت حديث من زاروه ورأوا روعته، وفيما كنت في الطريق إليه كان الخيال يزوّق لي صوراً شتى حتى وصلت إلى باب الجامع فأخذتْ صورة الخيال تضاءَلُ شيئاً فشيئاً ليحل محلها الواقع، وبعد أن صليت مع جموع المصلين صلاة المغرب قمت بالتجول وسط الجامع، ويعتبر آية في الفن المعماري والزخرفة الإسلامية، ومجهز بالثريات مما زاده نوراً وتألقاً حيث حلقات الدرس مما يذكر بماضيه حيث كان محط رحال طلاب العلم وخرج منه رجال يشار إليهم بالبنان في سعة العلم وتحقيق البحث، وأخذ اسم هذا الجامع يتردد على الألسنة والآذان، ولقد بني هذا الجامع في سنة ٧٩هـ وبناه حسان بن النعمان، ثم قام الأمير الأغلبي إبراهيم بن الأغلب بإعادة بنائه.

من خصائص هذا الجامع قاعته الكبيرة التي تحتوي على ما لا يقل عن مائة وأربعة وثمانين عموداً وكان هذا الجامع يمثل فيما مضى إلى جانب نشاطه الديني مركزاً سياسياً واقتصادياً تبرم فيه العقود، كما أن شهرته كجامعة ومنارة للعلم قد تخطت حدود البلاد، يقصده طلاب العلم من كل أنحاء العالم الإسلامي، ولقد جرت توسعته على يد الكثير من الخلفاء وقد كانت أرضيته التي أقيم عليها مملوءة بأشجار الزيتون، وفي أواخر أيام الحفصيين احتل الأسبان تونس ودخلوا الجامع بخيولهم ونهبوا الكتب وأحرقوها.

وخرجت من الجامع متجولاً في حي القصبة وسط أسواقه الضيقة

ويسمى بالحي العربي، ولقد شاهدت مجموعة من السياح من شتى الأجناس يشترون مختلف الهدايا والتحف التونسية، ولا غرو فتعتبر تونس من الأقطار السياحية الغنية بالآثار التاريخية، ففيها يشاهد المرء نماذج من الحضارة الإسلامية والبيزنطية والفينيقية، فضلاً عن جمال الطبيعة واعتدال المناخ.

ثم قمت بزيارة للسفارة السعودية وللمكتب التعليمي السعودي، ولقد سُررت كثيراً بمشاهدة أفواج من الطلاب يرتادون مكتبته ويطالعون الكتب الموجودة فيه، ويستفيدون من ذلك خلال كتابة بحوثهم، وبها عدد من الكتب والمؤلفات السعودية، وقد أهديت لأمين المكتبة مجموعة من المؤلفات والكتب السعودية، كما التقيت بالصديق الأستاذ/ محمد الرشيد الماجد، وقد مكث في تونس سنوات عديدة، وله صلات وصداقات بالكثير من العلماء والأدباء فأتاح لي فرصة اللقاء بعدد من العلماء والأدباء والمشتغلين بالتربية والتعليم، فكانت لقاءات طيبة ذكرتني بأدباء تونس القدامى من أمثال المعز بن باديس، والحسن بن رشيق، وابن عبدون، وعلي الحصري صاحب قصيدة:

يا ليلُ الصَبُّ متى غدُه أقيامُ الساعة موعدُه؟!

وإذا ألقينا نظرة على المكتبة التونسية وجدناها تحفل بكتب ومؤلفات في مختلف ميادين العلم والأدب والشعر، مما يدل على نهضة أدبية واعية، كما أن الصحف والمجلات تجسد نشاطاً أدبياً وتساير النهضة الحديثة شكلاً وموضوعاً.

كما قمت بزيارة للمتحف والمكتبة وبوابات المدينة وبعض الآثار القديمة وخرجت للنزهة والاستجمام لضواحي العاصمة فوجدت مشاهد خلابة ومناظر طبيعية جميلة هادئة، ومن تلك الضواحي: حمام الأنف -

سيدي أبو سعيد - حلق الوادي - الزهراء - رادس - المرسى - بابل - زغوان - وقمرت وغيرها من البلدان والمنتزهات والحمامات والمصايف والمرافق السياحية.

وكلها تطل على البحر وبها فنادق ومطاعم وشواطئ جميلة، وكان المطر ينزل خفيفاً حينئذ والسماء متلبدة بالغيوم، فمضينا وسط غابات رائعة من الأشجار، وتوجهت بعد ذلك لزيارة مدينة سوسة ذات الشواطئ الجميلة ومنها إلى القيروان، وخلال الطريق كنت أردد قول شاعرها عبد الرحمن بن زياد وقد عزم على العودة إليها من بغداد حيث يقول:

ذكرت القيروان فهاج شوقي ... وأين القيروانُ من العراقِ

مسيرة أشهرٍ للعِير نصًّا ... وللخيل المضمَّرة العتاق

وتبعد مدينة القيروان عن تونس مائة وستين كيلاً، وعلى امتداد الطريق الخضرة والأشجار والمناظر الطبيعية الخلابة.

وبعد أن وصلت القيروان تذكرت تاريخ هذه المدينة حتى طارت شهرتها في كل مكان نظراً لما كان فيها من أئمة العلم والثقافة الإسلامية منذ الفتح للمغرب العربي، ولكم تتلمذ الكثير من أبنائها على الإمام مالك رحمه الله وسمعوا منه الحديث ورووا عنه مذهبه في الفقه، وكثر القاصدون إلى هذه المدينة والآخذون عن علمائها وأدبائها من أبناء الأندلس والمغرب وإفريقية، وما زال جامع عقبة بعد صلاة المغرب يموج بحلقات الدرس والعلم ويؤمه طلاب العلم من نواح مختلفة؛ مما يذكر بماضي علماء هذه المدينة، ورغم ما مر بهذه المدينة من أحداث وغارات أجنبية فقد بقي أبناؤها محافظين على عقيدتهم ودينهم وتراثهم.

ومن جامع عقبة ذهبت إلى جامع أبي زمعة البلوي ثم إلى سور

المدينة القديم وموضع آبار المدينة التي كانوا يجلبون الماء منها، ثم طفت في أسواقها وما زالت على طابعها القديم، وتمتلئ بالتحف والصناعات الأندلسية إلى جانب صناعة السجاد والغزْل والنسيج، ولا غرو فأرض تونس خضراء جداً حيث يُزرع الزيتون بكميات كبيرة وكذلك الحبوب والفواكه وأشجار النخيل وبساتين الزيتون والكروم والليمون، وهي اليوم مقصد السواح من كل أنحاء المعمورة.

أما مدينة القيروان فهي مدينة تاريخية تحتفظ بطابعها القديم وبتراثها العريق، وقد أسسها البطل العربي المسلم عقبة بن نافع رحمه الله، ولكم رددت وأنا أتجول في ربوعها وبين أحيائها قول شاعرها القديم:

فهل للقيروان وساكنيها ... عديلٌ حين يفتخر الفخور
بلادٌ حشوها علمٌ وحلمٌ ... وإسلامٌ ومعروفٌ وخِيرُ
عراقُ الشام بغدادٌ وهذي ... عراق الغرب بينهما كثير
بلادٌ خطّها أصحاب بدر ... وتلك اختطَّ ساحتها أمير

وبعد ذلك ودعت هذه المدينة الخالدة وأنا أحمل أسمى المشاعر الإسلامية الأخوية، ورجعت للعاصمة، ومنها ودعت تلك الربوع مردداً هذا القول:

فتونُسٌ تُونِس من زارها ... ويدركه أُنسها حيث سار

القيروان عبق المجد وذكريات التاريخ

لقد استأثر أدب الرحلات باهتمام كثير من طبقات مثقفي العالم قديماً وحديثاً، وعُني به أعلام بارزون عبر مراحل التاريخ، وما زالت الرحلات إلى يومنا هذا مصدراً للتعرف على أحوال الأمم وثقافة الشعوب كما أن للرحلات أهميتها في اكتساب الخبرات واقتباس المعارف في شتى المجالات.

والرحلات مصدر للمؤرخ والجغرافي وعالم الاجتماع، وفيها قدوة للمقتدي بحيث يستفيد منها العظة والعبرة والفائدة، ويترك الأثر الحسن بما شاهد ورأى.

ويحرص كثير من الناس على الاهتمام بأدب الرحلات؛ حيث إن الرحالة دائماً ينقل للقارئ صوراً وقصصاً وطرائف ومشاهدات لكل ما شاهد وسمع ورأى، وما أكثر ما حفل به التراث العربي الإسلامي من أخبار الرحلات والرحالة، كرحلة ابن فضلان إلى إسكندنافيا التي اعتبرت أقدم تسجيل كتبه شاهد عيان عن حياة ومجتمع "الفايكنج"، فهي وثيقة فريدة تصف بدقة أحداثاً وقعت منذ أكثر من ألف سنة، ولقد وصفت تلك الرحلة بأنها المصدر الوحيد لتاريخ روسيا وبلغاريا وتركيا في تلك الفترة من القرن العاشر الميلادي، كذلك رحلة الإمام الشافعي من مكة إلى المدينة، ورحلة أبي دلف، ورحلة ابن جبير، ورحلة العبدري، ورحلة ابن بطوطة، ورحلة ابن خلدون، ورحلة العياشي، وغيرهم كثير مما يضيق المجال عن استعراضه، فكم فيها من الصور والمشاهدات التي أصبحت تاريخاً ومعرفة وفائدة للباحثين والدارسين بل وثائق تمثل نشاط

أسلافنا وطموحاتهم وارتيادهم للمجهول ومعرفة العالَم وطلب العلم والمعرفة ورواية الأخبار والأحاديث من أفواه الرجال، وكم تفيض كتب التاريخ والحديث بالروايات والأخبار والقصص عن المحدّثين الذين قاموا برحلات بصدد جمع الأحاديث وتدوينها، وكذلك كان الرحالة يذهبون ويرتحلون من أجل التجارة والالتقاء بالعلماء والأدباء والمؤرخين والأطباء ووصف طريق الحج والمشاعر المقدسة والحرمين وما بهما من آثار ومعالم وعلماء ومخطوطات وأماكن ومساجد ومكتبات، وما أعظم ما كتبه الرحالة ابن بطوطة في كتابه "تحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار".

لقد حفل التراث العربي الإسلامي بالأقوال والأشعار والحكم والأمثال حول السفر والرحلات، وإن أدب الرحلات حينما يتصدى له العلماء والمفكرون فإنه يظل مخصباً ومفيداً وذا عطاء علمي غزير، بحيث يبرز فيه الجانب التصويري والسياق الأدبي والتحقيق التاريخي والبحث الاجتماعي مع تطعيمه بمأثور الشعر والحِكم مما تقتضيه المناسبة.

ويطيب لي أن أستعرض رحلة قمت بها إلى مدينة القيروان حيث حرصت على زيارة القيروان التي فُتن المؤرخون والجغرافيون عبر قرون الفتح الإسلامي بذكر خصائصها الطبيعية والبشرية، وتتميز بمساجدها ومعالمها التاريخية فهي إحدى المدن التاريخية وكانت منارة تعليم وملاذاً للعلماء ومركز إشعاع حضاري في شمال إفريقيا، وهي مدينة قديمة تقع في منطقة صحراوية وزرعت بالقرب منها بساتين الزيتون.

ولقد تأسس بها بيت الحكمة حيث جمع الأمراء الأغالبة مشاهير العلماء، وكان به قاعات فسيحة ومكتبة عامرة، وكان مكاناً للمناظرات.

لقد كانت القيروان نقطة الانطلاق خلال الفتوحات لبلاد المغرب وإفريقية والأندلس حيث انطلق منها عقبة بن نافع والمجاهدون المسلمون، وكان لهذه المدينة دور عظيم وأدت خدمات جليلة للمسلمين وترسيخ الحضارة الإسلامية، ورحم الله عقبة بن نافع القائل: "إن إفريقية إذا دخلها أمير تحزّم أهلها بالإسلام فإذا خرج منها رجعوا إلى الكفر وإني أرى أن أتخذ بها مدينة تجعلها معسكراً وقيروانا".

وتمتد علاقة الحضارة الأندلسية بالقيروان من تاريخ فتح الأندلس سنة ٩٢هـ، وزاد في هذه العلاقة هجرة أدبائها وعلمائها فكانت مركز إشعاع يستقطب الشعراء، وكان جل علماء الأندلس يتعلمون بالقيروان، وكانت كتب ومؤلفات علمائها تقرأ في الأندلس في مجالات شتى في الفقه واللغة والآداب والبلاغة والشعر، مما كان له تأثيره في أصول الثقافة الأندلسية، كما أن القيروان كانت تعج بالأندلسيين في القرن الثالث والرابع الهجري وكان جامعها منارة علمية، وذكر المؤرخون أن الأندلسيين حضروا للاستماع من أبي الحسن القابسي كما صوّر أبو بكر بن العربي تلهُّف الأندلسيين لطلب العلم في جامع القيروان، ذكر ذلك المقري في "نفح الطيب"، كما نزل بها أبو علي القالي ومعه كمية كبيرة من كتبه، وهكذا طارت شهرتها وذاع صيتها العلمي والتاريخي حتى حلت بها المصائب، مما جعل الشاعر ابن شرف يتمنى أن يكون طائراً حتى يرى ما آلت إليه القيروان بعد محنتها في ذلك العصر، وتتردد في سمعه أنباء التخريب فيتذكر عمرانها وأدباءها وشعراءها في قصيدة طويلة منها:

يا قيروان وددت أني طائرٌ ... فأراك رؤيةَ باحثٍ متأمّل

آهاً وأيةُ آهة تشفي جوى ... قلبٍ بنيران الصبابة مصطلي؟!

أبْدت مفاتيحُ الخطوب عجائباً ... كانت كوامنَ تحت غيب مقفَل

ومن شعرائها أبو الحسن بن نضال القيرواني وقد جمع له ابن بسام بعض الأبيات عن القيروان منها قوله:

لله منزلةٌ بالقيروان محا ... أيامَها البينُ لا الأيام والقِدمُ
شققتُ جيبَ شبابي بعد فُرقتها ... حزناً عليها ولا شيبٌ ولا هرَمُ

وهكذا كان لها دور في الحضارة العربية الإسلامية في إثراء الأدب الأندلسي، فهي مركز من مراكز العطاء التاريخي والثقافي امتد تأثيرها عبر المحيط إلى صقلية وتجاوز غرباً إلى أقاصي المغرب الأندلسي، ولقد كانت الثقافة الإسلامية في القيروان ذات سمة متميزة وحب للعلم والأدب والشعر، ونبغ بها رجال وترجمت كتب في علوم كثيرة مختلفة، وما زال جامع عقبة بن نافع باقياً خالداً بفنائه الفسيح ومئذنته العملاقة وساعاته الشمسية ومسجده الكبير ذي الأعمدة الكثيرة والمحراب الأثري الدقيق الصنع، وبعد تمضية أيام ممتعة مفيدة في ربوع القيروان الحافلة بالآثار والمعالم العربية الإسلامية التي توحي بالعظمة والكبرياء وبما كانت عليه هذه المدينة التاريخية في عصورها الزاهرة وماضيها المجيد، ودعتُ تلك الربوع بهذه القصيدة:

من وحي زيارة مدينة القيروان ٢٤/ ٤/ ١٤١٥هـ

على طائر اليُمن سار السنا ... يشق الفضاءَ بعزم أبي
وبالشوق جئت إلى القيروان ... مشُوقاً إلى البلد الطيبِ
وغرّد شعري بأرضي الكماة ... وأشرقَ كالمنهل الأعذب
سلامٌ على وطن الفاتحين ... حُداة البلاد إلى الأصوَب
إلى من دعا للعلا والجهاد ... إلى عقبة الفاتح اليعرُبي
فقد وحّد الصفَّ في قوةٍ ... وساروا بعزم إلى المغرب
وفي القيروان لهم صولةٌ ... رجال العزيمة والمأرب

أكـــاد أرى وقـــعَ أقـــدامـــهـــم ... تـمـرُّ مـن الـجـسـر لـلـمـركـب
وسلُّـوا الـسـيـوفَ مـنَ اغْـمـادهـا ... لـنـشـر تـعـالـيـم نـهـج الـنـبـي
وفـي كـل شـبـرٍ لـهـم مـوقـعٌ ... عـلـيـه خُـطـى الـقـائـد الـمُـعـجِـب
صـروحٌ مـن الـعـلـم ضـاءت بـهـم ... ودامـــت دهـــوراً ولـــم تـــغـــرب
بـنـوا أمـةً مـجـدهـا شـامـخٌ ... وراحـوا بـعـزم إلـى الأصـعـب
وكـــان لـــهـــم هـــدفٌ واحـــدٌ ... وأشـرق وجـهُ دُنَـى الـمـغـرِب
أولـوا الـعـزم شـادوا مـنـار الـهـدى ... لـعَـبِّ الـنـمـيـر مـن الأعـذَب
وإنـي أحـيـي جـمـيـع الـصـحـاب ... بـأبـهـى الـتـحـيـات مـن يـشـرب

في الجزائر

ما كان أسعدني أن أُندب ضمنَ من ندب بعد استقلال الجزائر للإسهام في عملية التعريب وتدريس اللغة العربية وآدابها والتربية الإسلامية، فلبيت النداء سعيداً بأن أكون مدرساً في تلك الرُبوع التي بقيت فترة طويلة ترزح تحت نير الاستعمار وغطرسته وحربه الضروس القاسية، وقد كانت أفئدة المسلمين جميعاً تشارك الجزائر في محنتها وبلوائها وعسرها وشدتها وما اعتراها من آلام في ساحات الجهاد وميادين القتال مدة قرن ونصف، وقد كان دافعي أن أشارك إخواننا الذين حاربوا الاستعمار لتبقى الجزائر عربية مسلمة جهدَ طاقتي وسعةَ معرفتي، بل رأيت ذلك واجباً لا مندوحة عنه فاستجبت لثقة المسئولين ورحلت للجزائر في شهر رجب عام ١٣٨٥هـ مع نفر من الإخوان، امتلأت نفوسنا حماساً لهذه المهمة ورغبة في تأدية هذا الواجب وغادرنا الوطن الحبيب فمررنا بالقاهرة وبنغازي وتونس حتى وصلنا مطار الجزائر وقدمنا لموظفي الجوازات الأوراق مكتوبة باللغة العربية، فقيل لنا لا بد أن تكون مكتوبة باللغة الفرنسية فأخبرناهم بأننا لا نعرف الفرنسية ونحن قادمون إلى بلد عربي مسلم ضرب أمثلة في الكفاح للتخلص من الاستعمار ورفع لواء العربية وراية الإسلام، وقد أعزكم الله بالنصر، وأخيراً أخذوا الأوراق وترجموها وكانت لغتهم العربية ركيكة وضعيفة ولعل هذا هو السبب في ذلك، وقد أبدوا أسفهم لذلك وكانوا على جانب من اللطف وحسن المجاملة، ثم توجهنا صوب مدينة الجزائر العاصمة وقد كنا أول بعثة عربية تصل إلى الجزائر من المشرق العربي بعد الاستقلال، وقد كان

الحصول على فندق يضم أماكن لنا جميعاً معادلة صعبة؛ فما من فندق يممنا إليه وجوهنا إلا وجدناه قد علق على بابه لافتة تقول بالفرنسية: "مشغول بالكامل"، غير أنا لم نيأس فحاولنا أن نطرق شتى الأبواب، وانتهت المحاولات بالحصول على فندق اتسع لنا جميعاً، وهو ما كنا نتمناه وكان عددنا ستة أشخاص وهم أعضاء البعثة التعليمية السعودية.

ومدينة الجزائر مدينة كبيرة وتقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وعلى تل جبلي يطل بهامته الشامخة على البحر، مما أضفى على المدينة روعة إلى جانب الغابات المحيطة بها، والأسواق تمتلئ بالحركة والنشاط حيث المعارض التجارية.

ولقد أفاض الكثير من المؤرخين عن التاريخ القديم للجزائر وحسبي أن أذكر طرفاً مما شهدته فيها، فمن أعظم أحيائها حي القصبة معقل المجاهدين، فتذكرت خلال طوافي بين أرجائه جِلادهم وصمودهم لطرد المستعمر عن ديارهم وتضحيتهم، والجامع الكبير الذي التقينا فيه بمجموعة من العلماء الذين فرحوا بنا وقالوا: نحن لا نعتبركم أجانب في بلادنا بل إخوان كرام!، فقلت: وما عددنا أنفسنا غرباء في هذه الديار الإسلامية، ولكَم سُررت حينما رأيت الجامع يموج بالمصلين، ثم توجهنا بعد ذلك لزيارة السفارة السعودية ووزارة التربية والتعليم حيث التقينا بالمسئولين فيها فوجدنا منهم كل ترحيب ومودة وسرور بمجيئنا للمشاركة في عملية التعريب، واعتبروا ذلك تقديراً وشعوراً أخوياً رفيعاً وعرضوا علينا العمل في عدة مدن فاخترنا وهران المدينة الثانية والثغر الباسم الجميل، فتوجهنا إلى هناك بواسطة القطار بين الوهاد والنجاد والمناظر والمياه والأشجار حتى بلغنا وهران على شاطئ البحر، ولقد أنسانا التعبَ والمشقة تجدّدُ المناظر ومرأى المزارع والأودية والبساتين وأشجار

العنب والغابات على سفوح الجبال ومررنا بقرى ومدن كثيرة، ورددت هذا البيت:

وردتُ وَهرانَ مُلتاعاً ومغتبطاً تطغى بنفسيَ آمالٌ وأفكارُ

ولقد أمضيت في الجزائر عامين دراسيّين أسعداني بالتعرف على الكثير من مدنها وآثارها ومعالمها وتاريخها وعلمائها، ومخالطة الطلاب والأساتذة مخالطةَ أخوّة ومودة وتقدير، وطوّفت في الكثير من القرى والبلدان وما أحسسنا بالاغتراب، وما زلت أحتفظ بذهني بالذكريات المتنوعة التي بقيت عالقةً في النفس، ولله تلك الأيام وما تخللها من رحلات وجولات وجلسات على شاطئ البحر والبحيرات ووسط الأشجار والأعشاب، ورغم ما مر بهم من المحن والشدائد من قِبل الاستعمار فما زالت الروح الإسلامية والأخلاق العربية الكريمة تغلب عليهم، وبعد فللجزائر من موقعها وثروتها وخبراتها ما يضمن لها المستقبل الكريم الزاهر بتوفيق الله،وما أصدق قول الشاعر:

إذا أردتَّ ملأتَ العين من بلدٍ مستحسَنٍ وزمانٍ يُشبه البلدا
يُمسي السحابُ على أجبالها فِرقاً ويصبح النبت في صحرائها بِددا

ولقد سعدت كثيراً حينما كنت أسير في شوارع الجزائر ووهران وتلمسان وعنّابة وغيرها من البلدان فرأيت الأسماء العربية الإسلامية وأسماء الشخصيات الجزائرية المجاهدة ممن كان لهم دور إيجابي في تاريخ الجزائر، مثل عبد الحميد بن باديس والأمير عبد القادر الجزائري والإبراهيمي وغيرهم، وهكذا زالت أسماء الاستعمار واختفى الحرف اللاتيني حيث كانت اللغة وأسماء الشوارع والميادين فرنسية، وظهرت الأسماء الإسلامية والعربية في ثوبها الجديد وبخط عربي أنيق، وبذلك تغير الكثير من المعالم والقوالب واستعادت الكثير من مقوماتها العربية

والإسلامية، فقد كنا نقرأ ونسمع على الدوام بتعريب نواحي الحياة العامة في البلاد وتثبيت اللغة العربية في مختلف القطاعات ورحم الله ابن باديس القائل:

شعبُ الجزائر مسلمٌ وإلى العروبة ينتسِب
من قال حاد عنَ أصلِه فقد افترى ولقد كذَب

بمناسبة إقامة الدورة السابعة لجائزة البابطين للإبداع الشعري "دورة أبي فراس الحمداني" ألقيتُ كلمة وقصيدة قائلاً:

أهدي تحية من ديار النبوة ومنازل الوحي ومسارح الفصحى ومواطن الشعر والأدب ومباءات الشمم والكرم ومهوى أفئدة العرب والمسلمين وسلام للجميع ما تعاقب النيران وتجدد الجديدان.

إن هذا الملتقى الأدبي يتبوأ من التاريخ الفكري مكانة سامقة وعنواناً وضاء، وإن مجال القول في غايته وأهدافه لذو سعة، ولكن مقتضى الحال يدعو إلى الاقتضاب بهذه التحية الشعرية التي تتأرّج بزكي الشذا:

أيا أرضَ الجزائر أنتِ مجدٌ لأبناء العروبة قد تسامى
فسيري للأمام بكل عزمٍ فشعبك لم يزل حراً هُماما
أحيى الحفل في أرض الجزائر بلادَ الجود دوماً والكراما
وتعبق أرضها طيباً وعطراً ووروداً زانه حسنُ الخزامى
وجئت إليها يحملني اشتياقٌ وذكرى عذبةٌ عاماً فعاما
إلى وهرانَ زاد الشوق فيها وتزهو بالأحبة والندامى
لنا ذكرى وإخوانٌ كرامٌ لهم منا مودتُنا احتراما
ويجذبني الغرام إلى رياضٍ يفوح عبيرها شرقاً وشاما

وطُلابٍ لهم صدقُ النوايا ... على التعليم فانتظموا انتظاما
وكم ألقيت درساً في صُروحٍ ... بها الطلاب تزدحم ازدحاما
وكلُّهمو مشُوقٌ نحو علمٍ ... وصوتُ دروسهم يُشجي الحماما
وما أحلى الرُبوع وساكنيها ... فقد كنا بها دوماً كراما
وجئنا اليومَ في حفلٍ بهيجٍ ... غدا علماً رفيعاً بل وِساما
سعدنا في ربوعك بالتلاقي ... فزاد الشوق مشتعلاً هُياما
تحِياتٌ شذاها العطرُ حلواً ... لهذا الجمع حباً واحتراما
وها قد جئتُ يلفحني اشتياقٌ ... فدع عني القساوة والملاما

وهكذا رأينا الجزائر بعد الاستقلال مرفوعة الرأس منتصبة القامة، ولقد وصفها كثير من الجغرافيين والمؤرخين والرحالة ممن جابوا أنحاءها وكتبوا تاريخها، ولقد قلت قصيدة طويلة خلال عملي في التدريس أجتزئ منها ما يلي:

حيِّ الجزائر حيِّها ... ورجالها الغُرّ الكواسر
هم للرجولة أهلُها ... أهل الصرامة والبواتر
أجْلَوا من احتلّ الحِمى ... ومشى يجرُّ الذيلَ صاغر
كم من شهيدٍ قد مضى ... في قلبه حبُّ الجزائر
يابن الجزائر شِدْ لها ... عزاً ومجداً أنت قادر
درّستُ فيها نُخبةً ... شمّ المكارم والضمائر
وَهرانُ لن أنسى بها ... جمعَ البوادي والحواضر

في صحبة الأميرين
أبي فراس الحمداني وعبد القادر الجزائري

لا شك أن المشاركة في الندوات والمؤتمرات العلمية والثقافية من الأمور الجديرة بالتشجيع.

ولقد جاءت دورة أبي فراس الحمداني في مدينة الجزائر العاصمة التي تنظمها مؤسسة جائزة عبد العزيز بن سعود البابطين للإبداع الشعري وهي تحمل أكثر من دلالة في المسمى والزمان والمكان، فهي تحمل اسم أحد الشعراء الأبطال الشاعر الفارس أبو فراس، وكأنه يعود من جديد من قيد الأسر ليصدح في أرض الجزائر مفعماً بالصدق والقوة والأصالة.

لقد كانت زيارتي الأولى للجزائر قد مر عليها أكثر من ثلاثين عاماً حيث نُدبتُ لتدريس اللغة العربية وآدابها في مدينة وهران.

وبدعوة من المؤسسة غادرنا الرياض صباح الأحد ٥/٨/١٤٢١هـ إلى الكويت مع نخبة من الأدباء والشعراء السعوديين، ثم انطلقنا في طائرة الشعراء -كما أسماها بعضهم- إلى دمشق وإلى القاهرة ثم الجزائر عبر يوم كامل من الطيران، وفي دمشق صعد إلى الطائرة مجموعة من الشعراء والأدباء ومعهم أم الطفل الشهيد الفلسطيني محمد الدرة، وخلال الرحلة الطويلة لم نشعر بالتعب أو الملل فقد كنا في أمسيّة شعرية داخل الطائرة الجزائرية، وكانت عن الانتفاضة وعن محمد الدرة، واستعراض قصائد أبي فراس الحمداني مما اقتضته المناسبة حيث تبارى الشعراء العرب من لبنان وسوريا والأردن ومصر والسعودية والكويت وعمان وقطر

بقصائد شعرية تتأرج بزكي الشذا، ولقد كان صعود والدة الشهيد محمد الدرة إلى الطائرة من دمشق حدثاً حرّك مشاعر الشعراء وقام بعضهم بتسليمها قصائده، وكانت تغالب أحزانها بمجاملات لها مغزاها، وتحدثت لنا عن مصرع طفلها وفرّغت الكثير من حزنها أمام الأدباء والشعراء فصاغوها قصائد شعرية رائعة جاءت طارئة، وكأنها جاءت الدورة السابعة حدثاً ثقافياً متميزاً تحت راية أبي فراس الحمداني وشاعر الجزائر القائد الأمير عبد القادر الجزائري لتقوم بربط ودعم أواصر التقارب بين المثقفين والمبدعين والأدباء في مشرق العالم العربي ومغربه وَفقَ قواعد المحبة والتآخي ومد جسور الثقافة والأدب.

ومنذ وطئت أقدامنا أرض الجزائر شهدنا مظاهر الحفاوة والترحاب من الإخوة الجزائريين على مختلف المستويات، حيث التقينا بالعديد من الشعراء والباحثين والأدباء، لقد كان هذا اللقاء تجمعاً لعدد من الأدباء والشعراء والمثقفين والمفكرين من مختلف أرجاء الوطن العربي حرك المياه الراكدة في الحركة الأدبية وأثار اهتمام الأدباء وفجّر قرائح الشعراء في تلك الأمسيات الشعرية الرائعة، لقد تساءلت خلال الندوات الثقافية عن سر الجمع بين أميرين عربيين تفصل بينهما مسافة بعيدة مكاناً وحقبة مديدة زماناً، فقيل لي إن الشخصين يشتركان في مجال واحد وهو رصد بعض الملامح المتشابهة بين الأميرين وقد خاضا معركة واحدة غير متكافئة مع عدو واحد في أزمنة وأمكنة مختلفة.

فأبو فراس الحمداني كان واحداً من قواد سيف الدولة واجه دولة الروم وتحمل عبء حروبها، وقد واجهت الدولة الحمدانية مجابهة الروم في معارك متصلة كما واجه الأمير عبد القادر الجزائري في الجزائر حلقة أخرى من حلقات الحرب مع فرنسا وتزعم المقاومة واستجمع كل الطاقات الممكنة، لقد أحسنت المؤسسة باختيارهما موضوعاً للدورة السابعة فهما يقفان مع

تباعد التاريخ والمكان كبطلين في مواجهة مع عدو محتل.

إنهما أميران وفارسان وشاعران وأسيران في بلاد الفرنجة، وإن الاقتراب من الشخصيات التاريخية التي اتسمت بالتميز من جوانب الإبداع الإنساني شيء جميل، ولقد كان حفل الافتتاح لهذه الدورة برعاية وحضور فخامة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة الذي تحدث عن الشاعرين حديثاً طويلاً كما أقام حفل استقبال وحفل عشاء على شرف الضيوف وحضره الكثير من الشخصيات الثقافية، كما قام وزير الثقافة بدعوة ضيوف دورة "أبو فراس الحمداني" إلى حفل ثقافي بقصر الثقافة.

لقد عقدت عدة جلسات في قاعة المؤتمرات بفندق "الأوراس" بعد حفل توزيع الجوائز على الشعراء، وجرى مناقشة القصيدة في عصر أبي فراس الحمداني وكذا موضوع اللغة والدلالة والإيقاع في قصيدة أبي فراس الحمداني وكذا الصورة الفنية، ثم تطرق الباحثون إلى عرْض عن القصيدة في عصر الأمير عبد القادر الجزائري وقراءات من شعره وأقيمت أمسية شعرية عن الشاعر أبي فراس وأخرى عن الأمير عبد القادر الجزائري، وأمسية شعرية اشترك فيها نخبة من الشعراء العرب وأخرى خصصت لشعراء الجزائر، لقد كان لقاء ثقافياً حول محاور ثقافية ستشكل إضافة إلى مخزوننا في الشعر العربي وتواصلاً فكرياً وفرصة لتنمية العلاقات بين الأدباء والشعراء والمثقفين مما يفيد العمل الثقافي في وجه التحديات وفي زمن العولمة الذي يحاول إلغاء الخصوصية والهوية الثقافية العربية الإسلامية، إن هذه اللقاءات دعم وحفظ للأدب والذاكرة الشعرية واستعادة وهج وتألق الشعر العربي الذي يمثل ركيزة أساسية، وإن الاهتمام باختيار أسماء أعلام في الشعر العربي وتراثنا الخالد يعد إسهاماً كبيراً في ميدان الأدب والشعر، نأمل أن تظل هذه الجائزة عنواناً ثقافياً لخدمة لغتنا لغة القرآن الكريم وتراثنا العربي الإسلامي الخالد وإثراء حركة الإبداع العربي في مجال الشعر ونقده.

تلمسان لؤلؤة المغرب العربي

خلال إقامتي في الجزائر أستاذاً للغة العربية وآدابها في كلية المعلمين بوهران ١٣٨٥-١٣٨٦هـ(*) حرصت على زيارة تلمسان لأطلع عن كثب على ما سمعته وقرأته عنها وما تحفل به من آثار كثيرة تدل على عمق ماضيها واهتمام المؤرخين والجغرافيين بشأنها حيث اشتهرت بكونها مركزاً حضارياً وتجارياً وسياسياً عبر العصور، وذهبت مع بعض الزملاء من المدرسين السعوديين والعراقيين لزيارتها وانطلقنا من وهران حيث كان الجو مشرقاً مما مكننا من رؤية الأرض ومشاهدة المناظر الخلابة وكان الجو معتدلاً والهواء منعشاً والناس يبدون على طبيعتهم، وتجولنا في رحابها خلال جولة ممتعة تذكرت خلالها ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع فيها حيث كتب مقدمته سنة ٧٧٩هـ والتي شغلت أذهان العلماء والمفكرين طوال عصر التاريخ ونالت العناية والاهتمام أضعاف ما ناله تاريخه الكبير الذي وضع بمقدمته أصول علم التاريخ.

لقد سمعت عن تِلمسان الكثير إلى درجة العشق، والأذنُ تعشقُ قبل العين أحياناً؛ ولكن ما راءٍ كمن سمع، ولقد شاهدت فيها الكثير من المعالم التاريخية المهمة التي جعلت منها متحفاً للتراث المعماري العربي الإسلامي حيث تزخر المدينة بآثار كثيرة خلّفتها حضارات الأمم والشعوب وظلت شاهدة على ماضيها العريق، إنها مدينة متألقة بالجمال نابضة بالحياة، ولقد تعاقب على حكمها أمم كثيرة كالبربر والرومان والأمويين والعباسيين، والأدارسةُ والمرابطون والموحدون والمرينيون والحكم العثماني ثم الحكم الفرنسي عندما غزت فرنسا الجزائر سنة

١٨٣٠م وقد حوّلها الأمير عبد القادر الجزائري إلى عاصمة للجهاد والبطولات.

لقد كنت أستعرض ذلك التاريخ الطويل وما عانته من الحروب والويلات وتجولنا في ربوعها ومغاراتها وحماماتها المعدنية وجامعها الكبير الذي يرجع إلى عهد المرابطين وقلعة المنصورة وضواحيها الجميلة حيث مدرَّجات الهضاب الخضر مما يرسم لوحة معطرة الحواشي تتجلى في أحسن صورها. ونعود بعد ذلك إلى وهران ونحن في طريقنا نمر بالعديد من القرى بعد رحلة مليئة بالتاريخ والإثراء والفائدة قائلاً:

أيا تِلمسانَ المجدِ والعز والفكرِ رأينا بكِ التاريخَ من سالف الدهر

* تجدر الإشارة إلى أن السفارة الجزائرية في الرياض أقامت مشكورة حفل تكريم للمؤلف ﷾ نظير جهوده التربوية والتعليمية في الجزائر خلال تدريسه فيها موفداً من حكومة المملكة العربية السعودية، وتم تسليمه درعاً تذكارياً بهذه المناسبة، وتضمن هذا الدرع ما نصه:
(شكر وعرفان.. اعترافاً بالجميل من الشعب الجزائري لسعادة الأستاذ/ عبدالله بن حمد الحقيل - سلمه الله - على مناصرته الثورة التحريرية المباركة ومساهمته في عملية التربية والتعليم التي بدأتها الدولة الجزائرية غداة الاستقلال - الرياض نوفمبر ٢٠١٣).

في رحاب المغرب

كانت أولى زياراتي للمغرب في عام ١٣٨٥هـ فيما كنت مدرساً في الجزائر وتجوّلت في رحابه مستمتعاً بروعة الطبيعة وأصالة التراث.

وفي يوم الاثنين الموافق ١٣/ ١٢/ ١٤٠٠هـ توجهت للمغرب بعد زيارة لتونس على متن إحدى طائرات الخطوط الجوية التونسية، وقد أقلعت بنا الطائرة في رحلة استمرت زهاء ثلاث ساعات، ولقد كنا نشاهد من علّ جبال الأطلس حيث تكسوها الثلوج، ثم هبطنا في مطار الدار البيضاء العاصمة الاقتصادية للمغرب وهي أكبر مدن المغرب قاطبة.. ولم تكن هذه هي الزيارة الأولى للمغرب فقد زرته منذ سنوات حينما كنت مدرساً في الجزائر وكانت رحلاتي للمغرب في فصل الشتاء ونزول الأمطار وهبوب الرياح الباردة.

ووصلنا إلى مطار محمد الخامس بعد الظهر، وخرجت من المطار وإذا بأحد السائقين يأخذ حقيبتي والتفت إليّ سائلاً: أين تحب أن تنزل؟ فقلت له: لا تسألني اذهب بي إلى أي فندق في قلب المدينة فإن طاب لي المقام به مكثت فيه وإلا انتقلت إلى غيره خاصة أن ليس معي من الأمتعة أو الحقائب ما يثقلني أو يعوق تحركي، فانطلق بسيارته حتى وقف بي عند فندقين أحدهما يدعى المنصور والآخر مرحباً فقلت له: فلنذهب إلى هذا الذي يرحب بنا وعسى أن يكون الاسم مطابقاً للواقع!

وبعد استراحة قليلة في الفندق خرجت متجولاً في قلب المدينة، وكانت الشوارع مكتظة بالمشاة والسيارات كما أن المقاهي مليئة بالرُوّاد، ودلفت إلى إحدى المقاهي الواقعة في شارع محمد الخامس فاحتسيت

شاياً أخضرَ مغربياً، وتعرفت خلال تلك الجلسة على أحد الأساتذة المغاربة وكان على جانب من العلم والأدب، فتجاذبنا أطراف الحديث عن المغرب والأندلس وإيراد الشواهد العربية من الشعر والأمثال وعن العادات والتقاليد في المغرب حتى أنساني متاعب السفر والاغتراب، فالأحاديث الأدبية واللغوية العذبة الجميلة جعلتني أستردّ الذكريات، فتحدثنا عن تاريخ قرطبة وغرناطة والقيروان وفاس ومراكش وعلمائها وأدبائها فمضى الوقت ودعاني لزيارة دارته في ضواحي المدينة ولكني اعتذرت حيث سأذهب غداً إلى الرباط وفاس، وعدت إلى الفندق فوجدت بعض الإخوان السعوديين وبقيت معهم في بهو الفندق حيث دارت الأحاديث الشيّقة وطاب السمر، ولم نتمكن من الخروج حيث بدأ المطر يهطل والسحب الكثيفة تجلل السماء والبرق يلمع في الجو.

وفي الصباح قمت بجولة على ضواحي المدينة وعلى شاطئ البحر حيث المناظر والدارات الجميلة تتناثر على جانبي الطريق، وأينما سرّحت النظر يقع على مناظر طبيعية خلابة، وقد طليت أغلب البيوت والفنادق بالدهان الأبيض مما يُصدّق عليها هذا القول:

صدق الذي سماكِ بالبيضاء ... من أجل ما لَكِ من يدٍ بيضاء
إنّ البياض لنصفُ حُسنِ ذوي البها ... وبياضُ حسنكِ حاز كلّ بهاء

وحينما كنت أطوف في شوارع وميادين الدار البيضاء كان المطر يهطل والبرق يلمع فذكرت قول الأعرابي:

ألا أيها البرق الذي بات يرتقي ... ويجلو ذُرى البيضاء ذكَّرتني نَجدا
ألم تر أن الليل يقصُرُ طولُه ... بنجدٍ وتزداد الرياحُ به بَردا

حقاً إن الصلات بين المشرق والمغرب دينية وتاريخية قديمة وثيقة على الدوام وتزداد مع الأيام تبلوراً وتفاعلاً ورسوخاً.

وفي المغرب الشقيق ووسط أجواء الأمطار المتواصلة تذكرت بلادنا ومرابعها، وسألت الله أن ينعم بالغيث والمطر، فغزارة الأمطار تجعل من تلك الربوع أرضاً خضراء مزدانة بأنواع الزهور الطبيعية المختلفة الألوان.

جولة في الأحياء القديمة:

قمت بجولة في الأحياء القديمة في المدينة والتي بها حركة ونشاط تجاري، كما زرت المتحف الوطني وتجولت في الأسواق الخاصة بالتحف والتراث الشعبي، وحينما كنت أتجول في تلك الأسواق رجعت بذاكرتي إلى الأيام التي زرت فيها هذه الأماكن منذ خمسة عشر عاماً حيث طافت بذهني بعض الصور والذكريات.

وفي المساء قمت بجولة على بعض المكتبات الموجودة في قلب المدينة فوجدت اهتماماً وإقبالاً على نشر كتب التراث والتاريخ الإسلامي.

وفي الصباح توجهت للرباط على سيارة خاصة وكان الجو بديعاً إذ كان غائماً والمطر يهطل رذاذاً، وكانت المناظر رائعة حقاً فالأشجار والمزارع والبساتين منتشرة في كل مكان، والأرض كأنها بساط سندسي، وقد استمرت الرحلة ساعة ونصفاً وصلت بعدها إلى العاصمة وعلى الرغم من حاجتي إلى الراحة فلم أستطع مقاومة الرغبة في التجول في المدينة، فخرجت بعد استراحة قصيرة في فندق حسان إلى التجول على قدمي ومشاهدة شوارعها وميادينها ومتاجرها وعدت للفندق بعد ذلك، وقبيل غروب الشمس بقليل استأجرت سيارة تجولت فيها على نواح متفرقة من الرباط الحديثة والقديمة، ولكَم ردّدتُ قول أحد شعرائها حينما كنت أطوف بين ميادينها ومعالمها كقول الشاعر:

رباط الفتح مأوى الفاتحينا بدارته يطوف الناس حينا

إلى المنصور نِسبتُه وأعظِم به نَسَباً يزكي الناسبينا

وفي اليوم الثاني قمت بزيارة لبعض المؤسسات العلمية ومكتب تنسيق التعريب، ومكتب الملحق الثقافي، ثم خرجت قاصداً مدينة فاس عاصمة المغرب العلمية وهي من أهم المدن التاريخية القديمة، وتعتبر مركزاً إسلامياً وثقافياً هاماً حيث كانت مركزاً لدراسة العلوم الشرعية، وقد تخرج فيها كثير من علماء المسلمين وكانت ذات مكانة رفيعة، وما إن قاربنا فاس حتى شاهدت البساتين والمزارع وكأنها روابي خضراء.

وبعد جولة في المدينة القديمة ذهبت لجامع القرويين وأديت صلاة الظهر، وقد امتلأ الجامع بالمصلين وكان مفروشاً بالحُصُر الجميلة، وفي الجامع التقيت ببعض الإخوان المغاربة من رجال العلم الذين أخذوا يُضفون علينا من كرمهم بالدعوة إلى تناول القهوة في منازلهم، فاعتذرت لهم شاكراً حيث كان الوقت ضيقاً وكنت حريصاً على أن أرى شيئاً من معالم المدينة وزيارة بعض المكتبات والاطلاع على بعض المخطوطات في إحدى مكتبات المدينة القديمة.. ولقد تأثرت من قوة الرابطة الروحية الأخوية التي تجعل أولئك الإخوة يشعرون نحوَنا على بُعد الدار بالمحبة والمودة ولا غرو؛ فوشائج الدين واللغة والتاريخ المشترك لها تأثيرها وفعاليّتها، فمنذ سطع النور على هذه الأرض وأشرق ضوء الإسلام تحرر المغرب من ربقة وسلطة الرومان الذين بسطوا نفوذهم عليه طويلاً، فانتظم في أمة واحدة دينُها الإسلام ولسانها العربية وحاكمها القرآن، وبقي شامخاً شموخ المنارة الرفيعة منذ الخلافة الإسلامية التي أنقذته من سلطان الرومان، ولَكَم قلت للكثيرين ممن أتيح لي اللقاء بهم حينما جمعني مجلس في دور بعض الإخوان التونسيين والمغاربة، وفي أحاديثنا انجرَّ الكلام إلى أن استحضارنا دائماً لما صنعه أسلافنا من تاريخ مشرف وأمجاد عظيمة وتراث عريق يجعلنا نستحضر تلك المعاني ونتمثلها

ونستوعب مضامينها بحيث تحفزنا دائماً إلى أن ننهج منهج الأسلاف ونكون في مستوى ما كانوا من سمو المكانة وعلو المنزلة وعظم المجد وكريم التعاون والوعي لطبيعة التحديات التي تواجهنا وترمي إلى إعاقة مسيرتنا.. كما تناقشت مع بعض الإخوة عن اللهجات العامية المغربية التي سمعتها والتي تختلف من منطقة إلى أخرى، وتأثرها ببعض اللغات المجاورة كالفرنسية والأسبانية فضلاً عن البربرية حيث انتقلت إليها مفردات كثيرة من هذه اللغات، والواقع أن اللهجات العامية في المغرب العربي ليس من السهل على العربي المشرقي أن يفهمها ويعرفها، ولذا فإن هذه اللهجات هي خطر يتهدد اللغة العربية الفصحى فهل يدرك ذلك دعاة العامية الذين تارة يدعون إلى الكتابة بالحروف اللاتينية وتارة إلى العامية، ويدعون إلى إسقاط الإعراب والفصحى؟ حقاً إن الحديث عن موضوع الفصحى والعامية حديث ذو شجون بل يهيج الشجون على حد تعبير الشاعر العربي القديم:

وحدثتني يا سعد عنهم فهِجتَ لي شجوني فزدني من حديثك يا سعدُ

ولا أريد أن استطرد في هذا الموضوع فقد كتبت فيه مراراً وتحدثت عنه في أكثر من مناسبة. وما أصدق قول الشاعر:

من يعرفِ الشمسَ لم يُنكر مطالِعَها أو يبصرِ الخيل لا يستكرم الرّمَكا

وقول الآخر:

قد تنكر العينُ ضوءَ الشمس من رمدٍ وينكر الفمُ طعمَ الماء من سقَم

وإنكار الفصحى بمثابة إنكار الأمر المُحس المشاهد:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

إن حفظة اللغة أفراداً ومَجمعيّين قد أبلوا بلاءً حسناً في ميدان

مقاومة العامي والدخيل من كلمات الحياة العامة، وابتداع ألفاظ فِصاحٍ تحل محل الألفاظ العامية والأعجمية بما في ذلك من مسميات ومصطلحات الحضارة وأدواتها ومعانيها.

ومن فاس توجهت صوبَ مِكناس لإلقاء نظرة عجلى عليها ولعل خير وصف لهذه المدينة الجميلة هذه الأبيات:

يا رائداً للروض والإيناسِ عرِّج لشمّ الزهر في مكناس
بلدٌ حباه الله كلّ لَطافةٍ وحماه من كدَرٍ ومن أدناس

وذهبت إلى مرّاكش عروس الجنوب ذات التاريخ وعاصمة المرابطين، وكان لها امتداد ومكانة واستقر بها القائد يوسف بن تاشفين الذي كان له دور كبير في هزيمة الأسبان ولقبه أهل وطنه بأمير المؤمنين وسماه أعداؤه قائد الملثمين عندما فتح غرناطة وقرطبة، فهو الذي أسس مراكش في القرن الخامس الهجري، لقد كانت واحدة من أعظم مدن المغرب الإسلامي وما زالت باقية إلى اليوم مدينة جميلة حافلة بالآثار والمعالم والميادين والمساجد والمكتبات التي تحكي تاريخ المرابطين والموحدين والسعديين، إنها مدينة زاخرة بالحيوية والنشاط والعمل وأسواقها عامرة بالتحف والمقتنيات والصناعات الجلدية والخشبية والمعدنية والحريرية والمشاهد المتنوعة الجميلة وواحات النخيل التي تحف بالمدينة وجبال أطلس الشامخة التي تطل عليها من الجنوب، وقمت بجولة في حدائقها ومعالمها التاريخية والحديثة وهي اليوم مدينة سياحية.

وخلال وجودي في المغرب وزيارة بعض المكتبات اطلعت على مجموعة من الكتب والدواوين الشعرية لبعض أدباء وشعراء المغرب، فوجدت أدباً يجمع بين القديم والحديث في المعاني والمقاصد

والأهداف ومعايشة الواقع الحضاري إلى جانب ما قرأته لبعض الشعراء من شعر رصين يضاهي شعراء المشرق، ويمتاز بصفاء القول وسمو الخيال وعراقة الماضي وابتكار الحاضر.

ولقد تحدثت مع أحد المسؤولين عن دور النشر والمكتبات عن عدم تسويق هذه الدواوين والكتب إلى المشرق ليتيسر للقارئين والباحثين الاطلاع على هذه الآثار ودراستها وفهم أدب المغرب، فذكر لي عدة ظروف كعدم وجود موزعين وقلة الإمكانات وما إلى ذلك، وقدم لي أكثر من قائمة تضم مجموعة من الكتب والدواوين؛ مما يدل على أن الأدب يحظى باهتمام ويتبوأ مكانة طيبة، ولقد اطلعت على مجموعة من الصحف والمجلات فوجدتها تحفل بنشاط أدبي وتساير التطور الحديث شكلاً وموضوعاً.

تحية مكناس

في زيارة ثقافية لها في سنة ١٤١٥هـ جرت هذه القصيدة:

مكناس يا درةً زانت مفاتنُها ... وفي المعارف والآداب تزدانُ
جمالُها قد تجلّى في مرابعها ... وللهوى صورٌ شتّى وألوانُ
على رُباها تهادَى الحُسن مؤتلقاً ... وردٌ وظِلٌ وأحلامٌ وألحانُ
هِضابها الشُمّ والأشجار باسقةٌ ... والأرض مخضرةٌ والأُفق جَذلانُ
والطَلُّ ينشُر في أرجائها برَداً ... مروجها الخضر أشجارٌ وشُطآن
تلك الطبيعة في أحضانها نغمٌ ... وفي مرابعها زهرٌ وريحانُ
في روعة الحسن قد ذابت مشاعرنا ... من الجمال وهذا الحسن فتّانُ
شتى المفاتن توحي الشعر أعذبَه ... في سوحها صورٌ بالزهر تزدان
فيها الجمال وكل الناس تقصدها ... وفي بساتينها خوخٌ ورُمّان
أطلالها معقِلُ التاريخ من قِدمٍ ... وللأريج بها روحٌ وعرفانُ
لقد تجوّلت في أعلى مرابعها ... وراعني الحسن أشكالٌ وكُثبان
للسائحين بها في ظلّ أوديةٍ ... عطرٌ وزهرٌ وجناتٌ وغُدرانُ

رحلة الى فاس مدينة التاريخ والعلم والآثار

قُدّر لي أن أقوم بزيارة مدينة فاس عدة مرات، حيث حضرت فيها عدة مناسبات علمية وثقافية.

ويطيب لي بهذه المناسبة أن أسجل انطباعاتي ومشاهداتي عن هذه المدينة التاريخية العريقة والمركز الثقافي والتراثي، والتي تخرّج منها كثير من علماء المسلمين، فقد كانت ذات مكانة رفيعة، فهي حافلة بالآثار والأمجاد العربية الإسلامية، حيث مر تاريخها بحقب وعصور، وكان لعلمائها دور في الدفاع عن الإسلام ونشر رسالته في القارة الإفريقية.

ولكَم تألق عالم وأديب ومحدث ومؤرخ من هذه المدينة، فأسهم إسهاماً كبيراً في خدمة العلم والأدب والثقافة واللغة والتاريخ والحديث، ونشر الثقافة الإسلامية والدفاع عنها، والذب عن حياضها، ونشرها في جنوب أوروبا وغرب إفريقية. وما زلنا نحمل في أعناقنا ديناً لأولئك الأسلاف من علماء المغرب الذين كانت لهم المصنّفات الفائقة من أعلام البيان وأساطين اللغة والأدب والشعر، وما زالت أشعار الأندلسيين والمغاربة تحتل موقع الوجدان العربي الإسلامي، وقد عبروا عن الحنين إلى المشرق العربي في قصائدهم وأشعارهم.

لقد كانت مدينة فاس هي العاصمة العلمية، وقد أسست في عهد المولى إدريس الثاني سنة ١٩٠هـ، وتوجد بها جامعة القرويين التي بنيت سنة ٢٤٥هـ في عهد يحيى بن إدريس، ولقد ازدهرت هذه المدينة ووصلت أوجها في عهد المرينيين الذين اتخذوها عاصمة لهم، حيث

أنشئت فيها عدة مراكز ومنشآت حضارية، أهمها: القصر الملكي الحالي، وعدة مدارس.

ولقد قمت مع مجموعة من الإخوة الذين حضروا ندوة أبي بكر ابن العربي، بزيارة مدرسة المصباحية وسوق الصفارين وسوق العطارين وخزانة القرويين، وهي حافلة بالمخطوطات، ثم ذهبنا إلى المدينة القديمة، وشاهدنا أسواقها وبيوتها وأسوارها، ثم انتقلنا إلى المدينة الجديدة الحافلة بمعالم الرقي والتقدم والحضارة.

وخلال وجودي في مدينة فاس للمشاركة في ندوة أبي بكر ابن العربي المعافري، وجِّه للمشاركين في الندوة دعوات، من ضمنها: دعوة رئيس المجموعة الحضرية لولاية فاس وعميد جامعة سيدي محمد بن عبد الله ورئيس جامعة القرويين ورئيس جمعية فاس، فكانت لقاءات علمية وأدبية، وأحاديث فكرية ولغوية، تناولت العلاقات والصلات بين المشرق والمغرب قديماً وحديثاً.

وقلت: إنها قديمة وثيقة على الدوام، وتزداد مع الأيام تبلوراً ورسوخاً.

كما إن كتب الرحلات حافلة بالرحّالة من علماء المغرب الذين كتبوا عن الحرمين الشريفين ومصر والشام، ووصفوا المشاعر المقدسة المتعلقة بالحج، وما في مكة والمدينة من آثار كريمة، كابن بطوطة وابن جبير وابن عبد السلام ويحيى القرطبي ومحمد الكناني والعبدري وإدريس العلوي الحسني الفاسي ومحمد بن الطيب الفاسي صاحب "الرحلة الفاسية"، والتي وصف فيها رحلته إلى الحج.

وما زالت خزانة القرويين والرباط تحفلان بكتب كثيرة، فقد برز الإخوة المغاربة في هذا الجانب، ومدوا الثقافة العربية الإسلامية بذخائر

المعرفة، ونتمنى أن ينفض الباحثون الغبار عن كتب الرحلات التي ما زالت مخطوطة في خزائن المكتبات.

وجرى الحديث عن الندوة وعَلَمِها، فهو يعتبر من العلماء البارزين الذين تعدّدت مواهبهم وتنوّعت شخصياتهم، وقد كان لرحلاته الأثر البارز في تكوين شخصيته. ولقد اشترك في هذه الندوة أكثر من ثلاثين باحثاً، توافدوا من مختلف الجامعات ومراكز البحوث، وأقيم حفل الافتتاح في الجامعة.

ولقد تناول الإخوة المتحدثون جوانب متعددة من شخصيته في مجالات التفسير والحديث وأصول الفقه واللغة والأدب.

ثم ألقيتُ بعد ذلك حديثاً في مقر الندوة بجامعة سيدي محمد بن عبد الله في فاس، تناولتُ فيه مجموعة نقاط، منها: بعض مؤلفاته، مثل: أحكام القرآن، وكتاب المسالك في شرح موطأ مالك، والقبس على موطأ مالك، وعارضة الأحوذي على كتاب الترمذي، والعواصم من القواصم، والمحصول في أصول الفقه، وسراج المريدين وسراج المهتدين، وكتاب المتوسط، وكتاب المشكلين، وتأليف في حديث أم زرع، والناسخ والمنسوخ، وتخليص التلخيص، والقانون في تفسير القرآن، وأنوار الفجر في تفسير القرآن. وقال هو نفسه عنه: "إنه ألفه في عشرين سنة في ثمانين ألف ورقة في نحو ثمانين مجلداً، وقد تفرّقت بأيدي الناس".

ولقد أضحى بهذه الخلفية العلمية الرائعة نسيجَ وحْدِه، فهو عالم ثبت، وفقيه متمكن، ولغوي ضليع.

وهذه المؤلفات رصيد حافل تدل على شخصية فذة وجهود بارزة،

نهل من فكرها وعطائها الكثيرون وانتفعوا بها، وإن أعماله ومؤلفاته ستظل منهلاً فياضاً مفيداً.

والآن نسأل: أين ذهبت تلك الكتب والمؤلفات، وفي أي موضع طوّح بها الزمان؟ ولقد ضربت الأيام على كثير من تلك النفائس، وهدمت تلك الصروح العلمية، ومهما أحزننا فَقْد الكثير من آثاره، فإنّ مما يجلب إلينا العزاء أنّ هناك قدراً باقياً من تلك المصنّفات، والأمل كبير إن شاء الله في هذه الندوة في تناول شخصيته ومعالم حياته، ومواقفه الإصلاحية والعلمية، وإلقاء الضوء على جوانب حياته اللغوية والأدبية والعلمية وإثرائها؛ لتبقى مشعلاً وهاجاً للباحثين والدارسين، وتبقى في المكتبة العربية من الذخائر العلمية الحضارية مشاعلَ معرفة في أوطان شتى من الأرض؛ لما تستحق من عناية واهتمام كلَّ العناية والاهتمام، ويتعطش لها الوسط العلمي.

وبعد.. فإني لأعبِّر عن الاعتزاز بالمشاركة في هذه الندوة العلمية والمناسبة الفكرية، والتعرُّف على شخصية ابن العربي من خلال محاور هذه الندوة ذات الدلالة الكبيرة، والاستماع إلى بحوث الأساتذة الباحثين.

لقد اعتبره مؤرِّخو الأندلس أحد أركان ثقافتها وعلمائها وحفّاظها، فقد كان أديباً بارعاً فاضلاً، مطلعاً على أقسام الكلام من النظم والنثر، وراوياً لوثائقها، وبارعاً في العربية وضروبها.

وهذا يدل على مدى اتساع ثقافته التي اكتسبها من بيئته الثقافية في الأندلس، ومن تَطوافه بحواضر العالم الإسلامي، فهو يحتل مكانة متميزة في تراثنا العربي الإسلامي.

وكان حفياً باللغة العربية وحريصاً عليها، وكانت لديه الملكات

والاستعدادات اللغوية، مما جعله عالماً بها، بل ونحوياً من أساتذة النحو، وقد وضعه المؤرِّخون للحركة الأدبية في الأندلس في منظومة اللغويين، وأخذ على كاهله تدريس اللغة العربية لأدباء الأندلس، وكانت مجالسه الأدبية تحفل بالأشعار والأخبار الأدبية، وعلوم النحو والصرف والبلاغة، ويستعرض في دروسه أساتذة النحو وأئمة البيان، من أمثال: سيبويه والخليل بن أحمد ويونس بن حبيب ومدرسة الكوفة والبصرة والكسائي والأخفش والفراء والأصمعي، وكتب سيبويه والكسائي، وغير ذلك من الكتب والأبحاث النحوية.

وفي عصره بلغت الدراسات اللغوية مستوى رفيعاً، ونشطت حركة التأليف في هذا الميدان، وصدرت له كتب لغوية، مثل: مُلجئة المتفقهين إلى معرفة غوامض النحويين واللغويين، وتعرّض لأمور لغوية ومسائل نحوية في كتابه أحكام القرآن، وكذلك في شرح غريب الرسالة، حيث شرح فيها المفردات والألفاظ التي وردت في رسالة أبي زيد القيرواني، كما ذكر له حاجي خليفة والمقري في "نفح الطيب" رسائل في مسائل النحو وقضايا اللغة.

ولقد تتلمذ عليه عدد من العلماء والأدباء واللغويين، حيث ورد في كتب الطبقات أنّ عدداً من علماء اللغة والأدب قد أخذوا عنه مسائل النحو وعلوم اللغة العربية، لقد كان علماً من أعلام الأندلس في حقول علمية متعددة، أوردها من كتبوا عنه وترجموا له.

وكانت له آراء وأفكار ذات دلالة ومضمون، وكان في مستوى علماء اللغة في عصره، ولقد أسهب الرواة في هذا الجانب، وفي الحديث عن عمقه اللغوي وتضلعه الأدبي، وقالوا: إنه درس كتاب سيبويه وهو في الأندلس قبل أن يذهب إلى المشرق، وفي بغداد اهتم

بآثار مدرسة الكوفة والبصرة، وما كان يقع بينهما من خلاف، وقد اهتم كذلك بمؤلفات علماء اللغة في بغداد والبصرة، كابن جني والشجري وابن فارس، وله آراء نحوية في مسائل كثيرة، ونراه يرجح آراء سيبويه في بعض المسائل، وينتقده بعض الأحيان. ولا أريد أن أطيل عليكم في بحث وإيراد آرائه، وهي مبسوطة في كتب الدراسات اللغوية في الأندلس.

حقاً لقد ارتفع بمستوى اللغة العربية وإحياء تراثها الفكري ومقوماتها التاريخية، وفاض شعره بالغزل والوصف والشوق للأماكن والبقاع الأندلسية، فكان شعره تصويراً دقيقاً بليغاً ووصفاً صادقاً، وامتاز شعره بجزالة اللفظ، ومتانة الأسلوب، وبراعة التصوير، وحفل بالمعطَيات اللغوية السامية، وابتعد عن الضعف والركاكة، وأعرض عن الأغراض الشعرية التافهة، ووظف اللغة والأدب في أمور علمية كثيرة، وترك آثاراً واضحة، وثروة أدبية ولغوية، تشكل امتداداً فكرياً له، ذات خصائص وسمات أدبية متميزة، لا تغيب على من احتك بتراثه، ووقف على عطائه الفكري، والمتمثل في أسلوبه العميق خلال مناظراته للعلماء ولأستاذه الغزالي، حيث يتجلى الأسلوب البلاغي الرصين والبراعة اللغوية والمهارة الأدبية والإبداع الفكري.

وله رسائل لغوية وأدبية، منها: الرد على ابن السيد البطلْيوسي، حيث نقد شرحه لديوان المعري، ولزوم ما لا يلزم، وهذه الرسالة كغيرها من رسائله الأدبية واللغوية المفقودة، وقد أشار لها ابن خير الإشبيلي صاحب "الفهرست"، وكما ورد ذكر رسالته شرح غريب الرسالة، والتي شرح فيها المفردات التي جاءت في رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وقد نسبها إليه المقري صاحب كتاب نفح الطيب، كما أن

ديوانه الشعري تتجسّد فيه الرؤية الفكرية الحافلة بروائع القصائد والأشعار والحكم البالغة.

وكانت مجالسه ممتعة بالعلم والأدب، وصدق الحس والأصالة، وحسن التذوُّق لهما، مما يدل على مقدرة أدبية واطلاع واسع.

والواقع أن البحث عن ابن العربي في كل جوانب حياته العلمية والأدبية، يتطلب الإطالة بدرجة كبيرة، وحسبنا أن نعتمد في ذلك على التلميح بدل التصريح، والخلاصة: أنَّه أدى رسالته في الحياة على أكمل وجه، ورحل مخلفاً إنتاجاً علمياً ثرّاً، مما جعله من مفاخر الثقافة الإسلامية ومن أشهر علمائها.

وتوفي في مراكش سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وحمل إلى هذه المدينة - فاس -، ودفن فيها، رحمه الله وأكرم مثواه.

وقصارى القول: إني لأشعر أن بياني يقصُر عن أن يدنو من الوفاء بما يوجبه حق هذا العالم، وأرى قلمي عاجزاً عن أن يَجري بالحديث إلى الغاية التي تناسب فضله ومقامه، متعلّلاً بقول الشاعر:

إنّ القليل من الكلام بأهله ... حسنٌ وإنّ كثيره مملوتُ
ما زلّ ذو صمتٍ وما من مكثرٍ ... إلا يزِلُّ وما يُعاب صَموت

وبعد أن أمضينا أيامًا ممتعة في ربوع هذه المدينة التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة والقديم والحديث غادرتها مردِّداً قول الشاعر العربي:

بنفسي تلك الأرضُ ما أجمل الرُبا ... وما أحسن المُصطاف والمُتربَّعا

في جامعة فاس

ألقيت هذه القصيدة في ندوة "أبو بكر ابن العربي المعافري" بجامعة فاس في ٢٣/ ٥/ ١٤١٣هـ، حيث كنت مدعواً للمشاركة في هذه الندوة العلمية:

طار بي الشوق من روابي "طُويق" نحو "فاس" تزدان بالمهرجان
يا رفاقي على دروب بيانٍ قد أتينا من سائر الأوطان
جمعُكم أيقظ المشاعر عندي رغبةً في اللقاء بالخُلّان
كل شيء يؤكد اليوم أنا قد حضرنا لندوة ذات شانِ
"ولفاسٍ" توافد الناس جمعاً مشمخراً بعلمه والبيان
فافتحوا بالنقاش كل جديدٍ بين أفياء عالِمٍ بالمعاني
بنواحي العلوم كان ضياءً وسنًى للشباب في كل شان
وأفيضوا مما أفيض عليكم من علوم قد خلّدت في الزمان
رفقة العلم واجتماعٍ كهذا منبرٌ فوقه تعز الأماني
ومجال الحديث نحو إمامٍ مستهامٍ بالفكر والعرفان
كان شيخاً معلماً وإماماً علّم الناسَ في حمى الإيمان
يا أبا بكرَ أنت شيخٌ مفدًّى في رحاب الثواب والرضوان
أحكمَ القولَ في ضروب المعاني فتبقّت لنا بكل مكان
إنما العلم همةٌ وعلوٌّ كبرت عن تصور الأذهان

بين تطوان ومراكش

كنا - ونحن صغار - ننشد في المرحلة الابتدائية أناشيد كثيرة، وكان من بين الأناشيد المفضلة لدى الطلاب والمعلمين أنشودة:

بلاد العرب أوطاني ... من الشام لبغدانِ
ومن نجدٍ إلى يمنٍ ... إلى مصرٍ فتطوانِ

ومروراً بالعديد من المدن المغربية وصلت إلى تطوان المدينة التاريخية، والتي يقول أحد شعرائها عنها:

تطوانُ تطوانُ لا شيءٌ يضاهيها ... غنّت بلابِلُها إذ سال واديها
والفجر والليل لولا بعض من فيها ... لما نويتُ رحيلاً عن مغانيها

وقال آخر:

تطوانُ ما أدراك ما تطوانُ ... سارت بها الأنهار والخُلجانُ

لقد جمعت هذه المدينة بين البحر والجبل، وقد بناها مهاجرو الأندلس في القرن التاسع الهجري على أنقاض تطوان القديمة، فقد جاء الغرناطيون بعد نكبة الأندلس وتحصنوا بها، واتخذوها مركزاً لغزواتهم. وتذكرت قول الشاعر العربي وأنا أتجول في رحابها وبين معالمها:

انظر إلى تطوان كالقرطاس ... بيضاءَ صافيةً من الأدناس

ومنها توجهت إلى مراكش مدينة التاريخ والآثار، والتي بناها يوسف بن تاشفين في القرن الخامس الهجري، حيث اتخذها حصناً له ولدولته، حيث اتخذها المرابطون عاصمة لهم. ولا تزال آثار المرابطين

والموحدين قائمة إلى اليوم، وقد كانت مركزاً للعلم، ووفد إليها العلماء والشعراء، وقد وصف أحد الشعراء قصورها قائلاً:

كل قصرٍ بعد البديع يُذمُّ ... فيه طاب المَجنى وطاب المشَمُّ
منظر رائقٌ وماءٌ نَميرٌ ... وثرًى عاطرٌ وقصرٌ أشمُّ
إن مرّاكشاً به قد تباهت ... مفخراً فهي للعلا الدهرَ تسمو

وتجولنا في رحابها ومشاهدة معالمها القديمة والحديثة مما يسر الناظر ويروق المتأمل، ويذكر تاريخها وما مرت به من مجد وتاريخ وذكريات ذات عبق تاريخي وتراث أصيل.

ولقد كان السرور يملأ جوانحي وأنا أتنقل بين تلك الربوع، وما تحفل به من جوانب تاريخية وفكرية وحضارية، وما مرت به من قرون طويلة من الازدهار، كما رسمها من قبلي عدد من الرحالة والمؤرخين والجغرافيين، حيث عرفوا هذه البلاد، وجابوا أنحاءها، وكتبوا عن تاريخها ومؤسسها يوسف بن تاشفين في أواسط القرن الخامس الهجري، وأنها كانت حصناً له ولدولته، ثم جاءها الموحدون فاحتفظوا بها عاصمة لملكهم الواسع، وزادوا في عمارتها مساجد ومدارس ومنارات، لا تزال آثارها قائمة إلى اليوم، وصارت مركزاً للعلم، مما زاد من شأنها، وخلد ذكرها.

إيفران مدينة خضراء في قلب الأطلس المغربي

ذهبت إليها في يوم مشمس وجميل، وإيفران مدينة مغربية تعيش دائماً ربيعاً وسطاً في كل فصولها، فتبتهج بكل ألوان زرقة السماء وبياض الثلوج، وألوان لا تُحصى، فهي مدينة وديعة وهادئة في قلب الأطلس المتوسط، وقد سموها "سويسرا المغرب"، فهي الحديقة الدائمة الاخضرار، وتزدان بطبيعة أخاذة بجمالها، وقد تجولت في رحاب هذه المدينة.

وزائر إيفران يجد فيها متعة المناظر، وحساً جمالياً يرقى بالروح إلى ذوق سام، ومعنًى في هذه المدينة التي لها جذور تاريخية تتغذاها من غابات الأرز وجبالها الشامخة، وشلالات وينابيع ومهرجانات استلهمت أصالتها من الطبيعة والتاريخ، فهي مدينة تبهرك بجمالها، وقد أجمل الشعراء والمؤرخون ذلك، وتذكرت قول أحد شعرائها:

رُفعت سماءُ عمادها فكأنها ... قُطبٌ على فلك السعود يُدارُ
وزهت رياضُ نقوشها فبنفسجٌ ... غضٌّ وورْدٌ يانعٌ وبهار

ولما كان حديث الشعر حديثاً محبباً إلى النفس رددت قول أبي الطيب المتنبي وأنا أودعها:

وما كنت ممن يدخل العشقُ قلبَه ... ولكن من يبصر جمالكِ يعشَق

وقلت من قصيدة وأنا أتجول في مرابعها:

وجئت أشهد في إيفران روعتَها ... مناظرٌ بالشذا الفوّاح تنسكب
وكم بدا من جمالٍ فوق تربتها ... يزينها الحبُّ في أنحائها عجَبُ

جولةٌ في جبل طارق

في صبيحة يوم مشرق جميل رست بنا السفينة في ميناء جبل طارق، فكانت فرصة لتحية هذا البطل العظيم، مردداً قول الشاعر:

يا طارقُ بنَ زيادٍ اسمُك خالدٌ ... في كل خفاقٍ وكل لسانِ

والصخرة الشماء باقيةٌ وقد ... دكّ الزمان معاقلَ الطغيان

وكلما زرت منطقة من مناطق الأندلس شعرت بسعادة غامرة؛ ذلك أنها تجدد الصلة بتاريخ أمتنا وأمجادها وتراثها، ومن ذلك جبل طارق.

وقد رأيتها فرصة طيبة أن أقوم بزيارة جبل طارق؛ رغبة في الاطلاع، وحرصاً على اكتساب المعرفة، لا سيما وهو حافل بالآثار الإسلامية، وشهد مرحلة تاريخية هامة، ولعب دوراً رئيسياً في الفتوحات الإسلامية لأسبانيا وغيرها من البلدان الأوربية.

ويحدثنا التاريخ أن البطل طارق بن زياد فاتح الأندلس ركب هو وجنده أربعَ سفن، وكانوا سبعة آلاف رجل من المجاهدين، وعندما علم حاكم أسبانيا بنزول الجيش الإسلامي في الجزيرة الخضراء أعد جيوشه لمنازلتهم وقتالهم، إلا أن ذلك لم يفتّ في عضد المسلمين، بل أخذوا يفتحون القلاع والمدن، واستطاعوا أن يلحقوا الهزيمة بالجيش الأسباني، وتمكن طارق بن زياد من قتل حاكمهم.

وجبل طارق سكانه خليط من الأسبان والإنجليز وقليل من الهنود الذين يمارسون أعمالاً تجارية، وصخرة جبل طارق يشاهدها المرء من مسافة بعيدة، ولا يزال الجبل معروفاً ومشهوراً باسم جبل طارق.

وبعد أن تركنا آخر الأراضي الأسبانية وقفنا عند مركز الدخول صوب الجبل وسط طابور كبير من السائحين الذين يأتون إلى هذا الجبل أفواجاً؛ لزيارة ما فيه من آثار تاريخية ومعالم أثرية قديمة.

وبعد السير بضعَ دقائق دخلنا مدينة جبل طارق، وهي تقع على سفح الجبل، وتمتاز بمناظرها الساحرة ومتاجرها الأنيقة وشوارعها النظيفة، وتزخر بالحركة والنشاط السياحي، إلى جانب كونها سوقاً دولية حرة، تباع فيها البضائع بأزهد الأثمان.

ويوجد بالمدينة سور قديم، يرجع تاريخه إلى أيام المسلمين إبّان فتوحاتهم، إلى جانب بعض الآثار الأندلسية التي أخذت في التلاشي والاندثار، كما يوجد متحف يحتوي على بعض الآثار الإسلامية.

والواقع أن هذا الجبل غني بالذكريات، فقد كان دعامة كبرى للجيوش الإسلامية، وعاصماً لها من الأخطار التي كانت تحدق بها، وكان همزة الوصل بين أوروبا والمناطق الإسلامية، وطالما نشبت المعارك وقامت الحروب بين المسلمين والأسبان في محاولات الاستئثار به وبسط النفوذ عليه.

ولكَم تذكرت وأنا أطوف بين شوارع المدينة وخارجَها وعلى سفح الجبل خطبة طارق بن زياد الرائعة التي يحفز فيها جنده على القتال، ويبث فيهم روح الصبر والعزيمة، تلك الخطبة التي كانت دافعاً قوياً للجند للبسالة والتضحية.

وبعد قضاء وقت ممتع في التجوال في هذه المدينة التاريخية ركبنا البحر متوجهين إلى مدينة "طنجة" المرفأ المغربي الجميل، مردداً مع الشاعر العربي الأندلسي قوله:

لله يا جبلَ الفتحَينِ من جبلٍ معظَّم القَدر في الأجيال مذكورِ

في مكتبة "الأسكوريال"
مأوى المخطوطات الأندلسية
صفحات مضيئة من تراثنا

تزدان الكثير من المدن الإسبانية بالآثار الإسلامية، وأحرص في كل رحلة إلى أسبانيا على زيارة كلّ ما يعبر عن تلك المعالم والأمجاد، وبعد زيارة تلك المرابع الأندلسية أذهبُ إلى مدريد، وهي مدينة حافلة بالمعالم السياحية والمشاهد الأثرية ومكتبة الأسكوريال.

والمكتبات في كل أمة عنوانُ تطورها ودليل رقيها، فهي تؤدي أصدق خدمة وأجلَّها؛ إذ تسهم في تكوين الحاضر والتهيئة للمستقبل، وتتحف عشاق المعرفة بالعلوم والمعارف، فيحرص كل فرد مهتم بالمعرفة على زيارتها، حيث إن شهرتها تجذب الناس إليها، خصوصاً أنها تمتلئ بتراث ضخم من الكتب النادرة والمخطوطات القيمة التي تعد ينبوعاً ثرياً للحضارة الإنسانية والثقافة العالمية، ثم أخرج نحو مدريد القديمة ومراكزها الأثرية.

كما أقوم بزيارة لبعض الأمكنة والميادين القديمة فيها ذات القيمة التاريخية، وأتجول في ضواحيها وأطرافها البعيدة والقريبة، والمركز الإسلامي الثقافي الذي له نشاط ثقافي ومجلة دورية تعنى بالبحوث التاريخية باللغتين الأسبانية والعربية.

وفي صباح اليوم الثالث أتوجه نحو الأسكوريال، إذ قطعنا حوالَي خمسين كيلاً حتى وصلنا إلى تلك المنطقة التاريخية التي يعتبرها الأسبان

إحدى عجائب العالم، حيث تضم القصر والمقبرة الملكية والدير والمدرسة الملحقة بها، وفيها أمكنة مختلفة.

وبعد تجوال في المنطقة، توجهنا نحو مكتبة الأسكوريال الشهيرة التي يوجد فيها بقايا التراث الأندلسي الفكري، وهي تقع في الجهة اليمنى من القصر، وتضم بهواً واسعاً، تعرض فيه مجموعة من المخطوطات التي تحتويها المكتبة، التي منها مصحف كان لأحد سلاطين المغرب.

كما قابلت عدداً من الباحثين المغاربة يحققون بعض الكتب وينسخونها، ورأيت باحثاً عربياً معه مجموعة من المخطوطات، منها كتاب "نظم الفوائد وحصر الشرائد" للمهلب بن حسين بن بركات المهلبي المتوفى سنة ٥٨٤هـ، وهي منظومة في الأشباه والنظائر النحوية، وغيرها من المخطوطات في مختلف أنواع العلوم.

كما رأيت أحد الإخوة من جامعة الملك عبد العزيز وقد كان مبتهجاً في العثور على مخطوطة جاء للبحث عنها، وبدأ بنسخها ومقابلتها بأصلها.

ومكتبة الأسكوريال ليست غنية من الناحية الكمية فقط، فهي تحوي أكثر من سبعين ألفَ مجلد، ولكنها غنية أيضاً بما تحويه من نوادر المخطوطات العربية واللاتينية واليونانية والعبرية وغيرها، إذ تبلغ نحو عشرة آلاف مخطوط، ويبلغ ما تحتويه اليوم من المخطوطات العربية ألفي مجلد على حد تعبير أمين المكتبة.

وهذه المكتبة التي تجذب اليوم محتوياتُها جمهرة الباحثين من سائر أنحاء العالم كانت في بدايتها تتكون من المكتبة الملكية الصغيرة، ومما كان يشتريه سفراء الملك فيليب من المخطوطات النادرة من مختلف

الأقطار، وضمت إليها منذ البداية بضعة آلاف من المخطوطات العربية التي جمعت من غرناطة بعد سقوطها ومن سائر المدن الأندلسية، ثم زادت هذه المجموعة العربية زيادة كبيرة في عصر فيليب الثالث حينما استولت السفن الإسبانية في مياه المغرب سنة ١٦١٢م على سفينة مغربية كانت تنقل مكتبة سلطان مراكش، وقوامها ثلاثة آلاف مجلد في مختلف العلوم والآداب والفنون، وبذلك بلغت المجموعة العربية في الأسكوريال في أوائل القرن الرابع عشر نحو عشرة آلاف مجلد، ثم في عام ١٦٧١م شب حريق في القصر قضى على جلها من الكتب، فلم يبق سوى ألفي مجلد هي التي توجد اليوم في المكتبة، وهو أكبر مما تضمه مكتبات أخرى في أسبانيا، أمثال: المكتبة الوطنية، ومكتبة الأكاديمية التاريخية في مدريد، والمكتبات الأخرى في غرناطة وقرطبة وغيرها.

وبعد أن أمضينا بضع ساعات في داخل القصر ومشاهدة المتحف واللوحات والمكتبة توجهنا بعد ذلك إلى وادي الشهداء الذي لا يبعد إلا قليلاً من الأسكوريال.

ثم غادرنا المنطقة، وأخذنا طريقنا نحو العاصمة مدريد بين جبال خضراء، وكنت أقوم بتسجيل انطباعاتي عن الأندلس ماضيها وحاضرها في ضوء ما شاهدته في الأسكوريال، وتذكرت ما سبق أن قرأته عن حرص الأسبان على إخفاء التراث والآثار الإسلامية عن نظر كل باحث، حيث كانوا يخشون أن يتسرب الإسلام إلى تفكير وروح أبنائهم، فدفنوا الكتب في هذا القصر الذي صار اليوم مزاراً للسائحين ومُرتاداً للباحثين عن التراث العربي الإسلامي.

محاضرات وبحوث للمؤلف

- الدعوة الإصلاحية في مواجهة التحديات.
- العلاقة بين التراث الإسلامي ونمو المدينة العربية.
- وميض من سيرة الملك عبد العزيز (ظاهرة توطين البادية).
- محمد الخامس بطل التحرير.
- دور دارة الملك عبد العزيز في إحياء ونشر التراث الإسلامي.
- أبو بكر ابن العربي اللغوي الأديب.
- حول أسطورة القرصنة العربية في الخليج العربي.
- الصلات التاريخية بين الدولة العثمانية ودول الخليج العربي.
- النهضة التعليمية في المملكة العربية السعودية.
- علاقة نجد بالشام في الفترة من ١١٥٧هـ إلى ١٢٢٥هـ.
- قضية اللغة العربية بين الفصحى والعامية.
- نظرات في التراث.
- توحيد المملكة العربية السعودية وأثره في الاستقرار الفكري والسياسي والاجتماعي.
- التعليم في عهد الملك عبد العزيز.
- الأماكن التاريخية لمدننا بين الذكرى والنسيان.
- المجمعة بين الماضي والحاضر.
- من أدب الرحلات.

- الكتاب السعودي بين الواقع والمأمول.
- منهج الإسلام في تربية الأسرة.
- المؤسسات التربوية ودورها في التربية السلوكية.
- توظيف معطيات المعرفة في دعم المنهج التعليمي.
- الحجاز في أدب الرحلات.
- العلاقات العربية اليابانية من خلال الرحلات المتبادلة العربية واليابانية.
- حول الرحلات المغربية والأندلسية.
- شيء من ذكريات العمل في ميدان التربية والتعليم.
- صور من أدب الرحلات إلى الحرمين الشريفين.
- الحج في أدب الرحلات.
- مواقف وذكريات في الساحتين الثقافية والتربوية.
- بين الأمس واليوم والغد.
- من الماضي البعيد.
- التعليم في المسجد الحرام في عهد الملك عبد العزيز "الشيخ عبد الله بن حسن نموذجاً".
- سوق عكاظ بين الماضي الحي والغد المنشود.

مصادر ومراجع عن سيرة المؤلف الأستاذ عبد الله بن حمد الحقيل رحمه الله.

- الموسوعة الأدبية، دار قريش للطباعة والنشر، ١٣٨٨هـ، للأستاذ عبد السلام طاهر الساسي، مكة المكرمة، الجزء الثالث.
- شعراء العصر الحديث في جزيرة العرب - عبد الكريم الحقيل، مطابع الفرزدق ١٣٩٩هـ.
- من روادنا التربويين، د. عبد الله بن محمد الزيد، ١٤٠٤هـ، جدة.
- منهاج الطلب عن مشاهير قبائل العرب، محمد العثمان الصالح القاضي، ١٤٠٦هـ.
- الاتجاه الإسلامي في الشعر الحديث، خليف سعد الخليف، ١٤١٠هـ.
- موسوعة الدائرة للأعلام "معجم الكتاب والمؤلفين في المملكة العربية السعودية"، ١٤١٢هـ، الرياض، شركة الدائرة للأعلام.
- المجمعة، عبد الكريم حمد الحقيل، ١٤١٣هـ.
- موسوعة أدباء المملكة، أحمد مسلم، نادي المدينة الأدبي، ١٤١٣هـ.
- دليل الأدباء والكتاب، جمعية الثقافة والفنون، ١٤١٥هـ.
- معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين، الكويت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- من مشاهير الجزيرة العربية، عبد الكريم الحقيل، ١٤١٧هـ.
- معجم المطبوعات العربية في المملكة العربية السعودية، تأليف: د.علي جواد الطاهر، ١٣٤٠/ ١٤١٧هـ، دار اليمامة.

- موسوعة الشوق الطائف حول قطر الطائف، ١٤٢٠هـ، معجم موسوعي، حماد بن حامد السالمي.
- موسوعة "معجم الأدباء الإسلاميين"، سبعة أجزاء، دار الضياء للنشر، عمان - الأردن، ١٤٢٤هـ.
- موسوعة ديوان الشعر العربي خلال مائة عام، راضي صدوق.
- موسوعة تاريخ التعليم ورجاله "خمسة مجلدات"، قسم التراجم، وزارة المعارف، ١٤٢٣هـ.
- شخصيات في ذاكرة الوطن، ثامر بن محمد الميمان، ١٤٢٤هـ، دار المرسي للنشر والتوزيع، جدة.
- معجم الشعراء السعوديين، عبد الكريم الحقيل، ١٤٢٤هـ.
- عبد الله بن حمد الحقيل سيرة أدبية، دار الزازن للنشر والتوزيع.
- الأثينية، الجزء الثاني عشر، ١٤١٦هـ، الناشر: عبد المقصود خوجه، (ص: ٦٨١-٧٦٠).
- موسوعة الأدباء والكتاب السعوديين، أحمد سعيد مسلم، من ١٣١٩هـ إلى ١٤١٩هـ.
- المجمعة وحرمة من العصر الجاهلي إلى العصر الحاضر، عبد العزيز بن إبراهيم الحقيل، ١٤٢٢هـ.
- موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث، نصوص مختارة ودراسات، د. عبد الله المعيقل، ١٤٢٢هـ.
- معجم المؤرخين السعوديين، عبد العزيز الحقيل، ١٤٢٣هـ.
- موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث -المجلد الثالث-، د.مرزوق ابن تنباك، ١٤٢٢هـ، "المجلد الثالث".

وغيرها من المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات

تصدير ٥
مقدمة ٧
في رُبوع الخليج العربي ١٠
إلى سلطنة عمان ١٨
رحلةٌ إلى صَلالة ٢٥
تحية عُمان ٢٨
أيام ثقافية على ضِفاف الخليج في الكويت ٣٠
تحية لملتقَى الشعر في دولة الكويت ٣٩
قصائدُ ألقيتها في مناسبات تاريخية في دول مجلس التعاون الخليجي ٤١
تحية لندوة التاريخ والآثار المنعقدة في الشارقة ٤٣
تحية للّقاء العلميّ السنويّ الثامن المنعقد في المنامة لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون ٤٥
تحية للملتقى التاريخي الحادي عشر في البحرين ٤٨
رحلة إلى اليمن ٤٩
رحلة إلى حضرموت "بلاد الأحقاف ٥٧
في أرض الرافدين ٦١
أيام في بلاد الشام (سوريا - لبنان - الأردن -فلسطين) ٦٩
أيام في الأردن ٧٨
في فلسطين والصلاة في المسجد الأقصى ٧٩
في أرض الكنانة ٨٣
في مجمع اللغة العربية وخدمة الفصحى ٨٧
أيام في السودان ٩١
في تونس ٩٥
القيروان عبق المجد وذكريات التاريخ ١٠١
في الجزائر ١٠٦
في صحبة الأميرين أبي فراس الحمداني وعبد القادر الجزائري ١١١
تلمسان لؤلؤة المغرب العربي ١١٤
في رحاب المغرب ١١٦
تحية مكناس ١٢٣
رحلة إلى فاس مدينة التاريخ والعلم والآثار ١٢٤
في جامعة فاس ١٣١
بين تطوان ومراكش ١٣٢
إيفران مدينة خضراء في قلب الأطلس المغربي ١٣٤
جولةٌ في جبل طارق ١٣٥
في مكتبة "الأسكوريال" مأوى المخطوطات الأندلسية صفحات مضيئة من تراثنا ١٣٧
محاضرات وبحوث للمؤلف ١٤٠
مصادر ومراجع ١٤٢